

مَحَبَّات

[مِنْ أَدَبِ الْعَرَبِ]

قِسْمُ النَّثَرِ

بمجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهدئية
من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري

الجزء الأول

للاستاذ أبي الحسن علي الحسن الندوي

مَجْلِسُ نَشْرِ دِيَّانِ سَلَامَتِ

۱۔ ۳۔ ناظم آباد مینشن۔ ناظم آباد کراچی ۷۴۶۰۰

مختارات

[مِنْ أَدَبِ الْعَرَبِ]

قِسْمُ النَّثَرِ

بمجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهديبية
من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري

للاستاذ أبي الحسن علي حسيني الندوي

المجلد الأول

تعليق

أبي الفضل عبد الحفيظ البليّاوي

أستاذ الأدب في دار العلوم ندوة العلماء سابقاً

مجلس نشر التراث

١-٣-٣٠ نال آباديشن ٥ نالسم آباد ١ ٥ كراچی ١٨

الحقوق محفوظة للناس
 جملہ حقوق طباعت و اشاعت پاکستان میں
 بحق فضل ربی ندوی محفوظ ہیں
 لہذا کوئی فرد یا ادارہ ان کتب کو شائع نہ کرے ورنہ اس کے خلاف
 قانونی کارروائی کی جائے گی

نام کتاب	_____	محنت رات (اول)
تصنیف	_____	مولانا ابوالحسن علی حسنی ندوی
مطبوعہ	_____	مولائی پرنٹنگ پریس، کراچی
ایڈیشن	_____	۱۹۹۱ء
ٹیلیفون	_____	6600896

اسٹاکسٹ: مکتبہ ندوۃ - قاسم سینٹر اردو بازار کراچی
 فون : ۲۶۳۸۹۱۷

ناشر
 فضلہ ربیہ ندوی

مجلس نشریات اسلام کے ۳۔ ناظم آبادیشن۔ ناظم آباد۔ کراچی

مختارات
من أدب الجبل العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«مختارات»

كَمَا يَكْرَاهَا أَدِيبٌ عَرَبِيٌّ كَبِيرٌ

وهو الأستاذ علي الطنطاوي الذي يعتبر في طليعة أدباء العربية اليوم ومن أقدر كتّابها وصاحب طريقة وأسلوب فيها وقد اشتغل بالتدريس في جامعتي بغداد ودمشق وشغل منصب القضاء مدة من الزمن وله عشرات من المؤلفات أكثرها في الأدب والنقد والتاريخ .

إذا كان الدليل على دوق الأديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لتتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام ، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة - وكلهم من الأدباء - يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان ، مختارات أبي الحسن .

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه ، إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا تقتصر في الاختيار ، على « وصف الكتاب » للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يمدّها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى الأعيب ابن العميد ، وغلاطات الصاحب وهندسات القاضي الفاضل ، فتنفر التلاميذ من الأدب ، ونكرهه إليهم ، وكنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علماً ، وأشدّ تصرفاً في فنون القول ، وأكبر أستاذية ، وإن الحسن البصري أبلغ منهما ، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري ^(١) .

(١) وقد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه ، ولكنها حق ، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي وأعظم .

وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن الجوزي في الصيد ، وابن هشام في السيرة ، بل والشافعي في الأم ، والسرخسي في المبسوط ، أجدي على التلميذ وأنفع له في التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، ومخرقات الحريري وابن الأثير .

وكتبت في ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيشت منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فإذا هو قد نفّض كتب الأدب والتاريخ نفصاً ، وحرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه ^(١) .

(١) الأستاذ علي الطنطاوي في مقدمته لكتاب « المسلمون في الهند » طبع دار الفتح بدمشق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه
أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فإن الأدب العربي قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ،
وهي محنة تكاد تكون طبيعية ومطرودة للأدب واللغات إلا أن آجالها تختلف .
فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قوم ويقصر في أدب قوم آخرين ، وذلك يرجع
إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية وحركات الإصلاح والتجديد ، والبعث
الجديد ، فإذا توفرت في أمة قصر أجل هذه المحنة ، وإذا فقدت أو ضعفت طال
أمد هذه المحنة وطال شقاء الأدب والأمة بها .

إن هذه المحنة هو تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذين
يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً ويتنافسون في تنميته وتحجيره ليثبتوا
به براعتهم وتفوقهم ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمر ذلك ويستفحل حتى يصبح
الأدب مقصوراً عليهم مختصاً بهم ، ويأتي على الناس زمان لا يفهم من كلمة
« الأدب » إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا
روح ، ولا جدة فيه ولا طرافة ، ولا متعة فيه ولا لذة .

ويظن هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ،
وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبعي وكلام مرسل ، وتعبير بليغ يحرك
النفوس ويثير الإعجاب ، ويوسع آفاق الفكر ، ويفري بالتقليد ، ويبعث في
النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والانشاء
ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، ولم يكن لهذا النتاج
الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن في سياق أدبي ، وإنما جاء في بحث

ديني ، أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً
في الأدب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الأدب الصناعي - بكبريائه - أن
يفسح له في مجلسه ولم ينتبه له مؤرخو الأدب - بضيق تفكيرهم وقصور نظرهم -
فينوهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية ، بل هو
أكبر سناً وأسبق زمناً من الأدب الصناعي ، فقد دون هذا الأدب في كتب الحديث
والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ
من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي ، مع أنه هو الأدب
الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم ، وهو
مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة - كمثال لهذا الأدب الطبيعي - أولاً فنقول :
إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربي -
على سعتها وغناها - وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير
الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف
بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب
الأولين وأساليب بيانهم ، ولئن صح ما قاله الرقاشي : « إن ما تكلمت به العرب
من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ،
ولا ضاع من الموزون عشرة » فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ
الأدب العربي تنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي أعتقد أنه قد ضاع ، وتمتاز أنها قد
اتصل سندها وصحت روايتها فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة
في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشرراً في جزيرة العرب .
إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب
العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس
الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير
الراقي ، وعدم التكلف والمصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري
في صحة النقل والرواية ، ولغة العربية بالسعة والجمال .

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان .

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك وهو موضوع دقيق مخرج ، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره وتساور نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي ﷺ ربطاً وثيقاً محكماً ، لا يحله العتاب والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه وتوددهم إليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقداً ودقة ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة نعتز بها .

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي أقتبسها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعاداته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير وبراعة التعبير .

« وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي وأنا قادر عليه فلم يزل يتأدى بي حتى اشتد الجد . فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغلوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غلوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل

فأدركهم . وليتني فعلت ! فلم يقدر لي ذلك . فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه التفاف أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء » .

ثم انظر كيف يصور حالته وقد هجره المسلمون ونهوا عن كلامه ، وكيف يعبر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب - عقوبة وتأديباً - وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته والذي لم يزدده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

« ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت يا أبا قتادة ! أشدك بالله ! هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عينا ، وتوليت حتى تسورت الجدار » .

واقراً معي كذلك حديث الافك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الأدبية وقوتها البائية ، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها ، مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها . وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، والعاطفة والعقل . زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في الأدب .

انظر كيف نصف ما تقوله الناس وتحدثوا به وما شعرت به من تغير في وجه الرسول ﷺ ، تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهام أو عي :
قالت عائشة : « فقدمتا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرأ والناس يفيضون في أصحاب الافك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي . إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكمن ؟ ثم ينصرف فذلك يريني ، ولا أشعر بالشر » .
وتذكر توجعها من الخبر المشاع فتقول : « فبكيت يومي ذلك كله ، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . قالت : « وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فائق كبدي » .

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعترها حمية المرأة العفيفة الفاضلة ، ويقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة ، وترجو أباه وأمه أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ فيمتنعان ويفضلان السكوت حياءً من رسول الله ﷺ واستحياءاً من الدفاع عن قضية بنتهما وهو الدفاع عن النفس ، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين - وهي البليغة الأدبية - وتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفرض أمرها إلى الله ، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ﷺ وتقوم إليه فتأبى - في دلال العفاف وأنفة المؤمن - أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سموات ، وخلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به .

واقراً كذلك حكايتها للهجرة النبوية وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في الطريق ، ووصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقاهما الأنصار ، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ ، والبيان القادر الوصاف .

وهناك روايات أخرى طويلة النفس ، ضافية البيان ، تشتمل على غرر الكلام وبدائع الحسان ومناهج العرب الأولين في كلامهم ، كحديث صلح الحديبية وحديث الایلاء وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين ، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأن

تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة .

وبلى الحديث كتب السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأفحاح ، ومثلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى وهذبها الإسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير في المكتبة العربية المتأخرة .

اقرأ في سيرة ابن هشام حديث حليلة ابنة أبي ذؤيب السعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ وقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب ، وقرأ فيها مغازي رسول الله ﷺ وحروبه ، وقرأ في كتب الحديث والشمائل ، وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية تجدد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوارج النفس وتر من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف والتعبير الدقيق الرقيق ما يطربك ويملوك سروراً ولذة وثقة وإيماناً بعبقريه هذه اللغة ، ورغبة في دراستها والتوسع فيها .

وهكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمانة للقرآن من الضياع وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ومن كتاب إلى كتاب ، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع ، وحفظ لنا المؤرخون أمثال الطبري والمسعودي ، والأدباء ، أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصبهاني ثروة زاخرة من الأدب في كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منها الشيء الكثير في كتاب البخلاء للجاحظ وكتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (على ضالة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) ، وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء وكتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وهذه كتب التاريخ والأدب التي تمثل لنا العربية في جمالها الأول ونقاها الأصل وسعتها النادرة .

ثم جاء دور المتكلمين المقلدين للعجم ، ونبت في العواصم العربية أمثال أبي إسحاق الصائبي وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبدع الزمان الهمداني وأبي العلاء المعري ، واخترعوا أسلوباً للكتابة والانشاء هو بالصناعة اليدوية والوشى والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسل وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع ، وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا في ذلك

غُلِّواً أذهب بهاء اللغة ورواءها وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدت حرية وانطلاقه وخفة روحه وجماله .

وترغم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع لهم العالم العربي الإسلامي لنفوذهم وعلو مكانتهم تارة ، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود على العالم الإسلامي أخرى . وأصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يحتذى ويقلد في العالم الإسلامي .

وجاء أبو القاسم الحريري فألف المقامات - وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر - وسميات لقبرها النفوس فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحاً وتقليداً وحفظاً ، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب ، وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي ، وما ذاك لفضل الكتاب بل لأنه قد وافق هوى النفوس وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي .

ثم جاء القاضي الفاضل - مجدد أسلوب الحريري وبالأصح مقلده - وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها ، وكاتب سر أحب سلطان في عهده صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ومعيد مجد المسلمين - فانتشر أسلوبه في العالم الإسلامي وحرص على تقليده الكتاب والمنشئون في أنحاء المملكة الإسلامية ^(١) .

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية وأصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو المعنى بالأدب العربي ، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة وأمرء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين وفقد بعضهم بعضاً وتناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منها إلا عبقران اثنان ، أولهما ابن خلدون ، وثانيهما الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ^(٢) (م ١١٦٧ هـ) .

(١) ظهرت نماذجهم في الكتاب لقيمتها الفنية ولأنها تمثل دوراً من تاريخ الأدب العربي .

(٢) اقرأ كتابه الفريد « حجة الله البالغة » ، وقرأ ترجمة مؤلفه في « نزهة الخواطر » الجزء السادس ، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند) .

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس - حتى الباحثين منهم - عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد في أن يبحث التاريخ والسَّير والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق - في قوتها وحيويتها ، وسلاستها وسلامتها وفي بلاغتها وجمال لغتها - على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكب عليها الناس وافتتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء - حتى في عصور الانحطاط الأدبي - غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية وفي أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الانسان ملكه الإعجاب وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقررونه ، وهذه القطع التي طويت في أثناء كتب علمية أو دينية فجعلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل . وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال وهي التي يفرع إليها المتأدب المتذوق وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون .

إن ما كتب هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الانشاء هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية ، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الانشاء لفسدت كتابتهم وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها كتابتهم وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة ، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له ، الطامسة لنوره ، فلا بد فيه من السجع والصناعة ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية ولا بد من تقليد من يعد في الطبقة الأولى من الأدباء ، أما الكتابات العلمية التاريخية أو الدينية فليست فيها هذه الالتزامات وهذه الشروط القاسية فتأتي أبلغ وأجمل .

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبياً وتكلف الانشاء تدلى وأسف ، وتعسف وتكلف ، ولم يأت بخير ، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد ، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في « أطواق الذهب »

وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة « المفصل » وفي مواضع من تفسيره « الكشف » ، ونجد ابن الجوزي غير موفق في كتابه « المدهش » وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه « صيد الخاطر » ، وظني أنهما كانا يعتبران أثرهما الأدبيين « أطواق الذهب » و « المدهش » من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ويفتخران بها ولعل عصرهما صفق لهما لكتابتهم العلمية والأدبية والدينية . ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل . وليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة . أما صيد الخاطر وتلبس إبليس والمفصل والكشاف فهي جديرة بالبقاء جديرة بكل اعتناء .

ليس السر في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترسلها فحسب بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم . أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لارضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حباً للظهور والتفوق . وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ولا تسع عليها لباس البقاء والخلود ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب ، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والانسان وكالفرق بين النائحة والشكل .

ويذكرني هذا قصة رومينا في الصبا وهو أن كلباً قال لغزال : مالي لا ألحقك وأنا من تعرف في العدو والقوة ؟ قال : لأنك تعدو لسيدك وأنا أعدو لنفسي .

وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتتألم عليهم المعاني وتطاولهم الألفاظ وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب .

أما هؤلاء المتصنعون فأنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالمثلثين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره . وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر وقد يمثلون السعيد وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتسبوا ناز الشقاء ،

وقد يعزّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه وقد يهثون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه .

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزالي في « الاحياء » وفي « المنقذ من الضلال » ، وقرأ خطب عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) ما صح منها ، وقرأ ما كتبه القاضي ابن شداد عن صلاح الدين ، وقرأ ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما ترّ مثلاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً ، وذلك هو الأدب الحي الخلق بالبقاء ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة .

وهناك شيء آخر وهو أن الايمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك بارعة في التصوير لذلك كان من الأدب الصوفي وفي كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال . وترى من ذلك نماذج في كلام السادة الحسن البصري وابن السكّ والفضيل بن عياض وابن عربي الطائي تعد من محاسن العربية ، وقرأ - على سبيل المثال - الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه وسجله في كتابه « رسالة روح القدس » .

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة في المكتبة العربية إذا جمعت تكونت منها مكتبة لكنها منثورة مبعثرة في هذه المكتبة مطوية مغموزة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والانشاء في مكتباتنا العربية ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلاً للغة العربية وأدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب ومن كثير من المجاميع والرسائل والمقامات والمقالات الأدبية التي تعتبر أساس الأدب وزهو العربية ومحصول العقول .

وهذه القطع هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب ، وهي التي تفتح القريحة وتنشط الذهن وتقوي الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية .

إن هذه القطع والنصوص منثورة كما قلت في كتب الحديث والسيرة والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم والرحلات وفي الكتب التي ألقت في الإصلاح والدين والأخلاق والاجتماع ، وفي بحوث علمية ودينية ، وفي كتب الوعظ والتصوف وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصة حياتهم .

هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والانشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير .

مخطئ من يظن أن المكتبة العربية قد استنفدت وعصرت إلى آخر قطراتها ، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات . إنها لا تزال بكرأ جديدة تعطي الجديد وتفجأ بالغريب المجهول . إنها لا تزال فيها ثروة دفيئة تنتظر من بحضرها ويثيرها .

إن مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد وإلى دراسة جديدة وإلى عرض جديد .

ولكن هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر فالذي يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة وذخائر عربية جديدة ، ينبغي ألا يكون ضيق التفكير ، جامداً متعصباً في فهمه للأدب ، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر . تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة العربية ، أو يوجشه عنوان ديني أو يمنعه - من الاختيار والدراسة - اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حر التفكير ، واسع الأفق بعيد النظر متطلعاً إلى الدراسة والتجربة واسع الاطلاع على الكنوز القديمة يفهم الأدب في أوسع معانيه ويعتقد أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهوم مؤثر لا غير .

إنني لا أزدري كتب الأدب القديمة - من رسائل ومقامات وغيرها - ولا أقلل قيمتها اللغوية والفنية وأعتقد أنها مرحلة طبيعية في حياة اللغات والآداب ، ولكنني أعتقد أنها ليست الأدب كله وأنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب

العالم وأوسعها ، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، ، والمواهب والطاقت
وعلى صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر والتعبير
والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال ، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقريّة
والأدب الغني فترة غير قصيرة فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة ونضعها
في مكانها الطبيعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وأن ننقّب في المكتبة العربية
من جديد ونعرض على ناشتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة
للأدب العربي حتى يتذوق جمال هذه اللغة وينشأ على الابانة والتعبير البليغ ، ويتعرف
بهذه المكتبة الواسعة ويستطيع أن يفيد منها .

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألفنا كتابنا ، « مختارات من أدب العرب »
وها هو الجزء الأول من هذا الكتاب يجمع بين الطبيعي والفني - ولكل قيمة أدبية -
ويجمع بين القديم والحديث ، نرجو أن يقع من الأدباء والمعلمين موقع الاستحسان
والقبول .

وقد عنيت بترجمة أصحاب النصوص ، وأشرت إلى مكانتهم الأدبية ، وما تمتاز
به القطعة التي اقتبست من كتاباتهم الكثيرة ، وأدبهم الجم ، ليستعين به المعلمون
في تربية الذوق الأدبي ، ومعرفة الفضل لأصحابه .

وشكري واعتراضي لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي ^(١) معتمد دار العلوم
ندوة العلماء والدكتور السيد عبد العلي الحسيني ^(٢) مدير ندوة العلماء والأستاذ محمد
عمران خان الندوي الأزهري عميد دار العلوم سابقاً الذين كان لتشجيعهم وإتاحتهم
للفرص فضل كبير في تأليف هذا الكتاب ، عام ١٣٥٩ هـ ، وتقريره للدراسة في
دار العلوم ندوة العلماء ، كما كان لحضرات الأساتذة الشيخ محمد حلم عطا ^(٣)
مدرس الحديث الشريف في دار العلوم ، والأستاذ الكبير السيد طلحة الحسيني ^(٤)

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى لثلاث عشرة خلون من ربيع الأول عام ١٣٧٣ هـ - الموافق
٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣ م .

(٢) توفي إلى رحمة الله تعالى في ٢٢ ذي القعدة ١٣٨٠ هـ - الموافق ٧ مايو ١٩٦١ م .

(٣) كانت وفاته يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٥ م .

(٤) المتوفى ٢٢ رجب ١٣٩٠ هـ - الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠ م .

معلم الكلية الشرقية في لاهور سابقاً ، والأستاذ محمد ناظم الندوي أستاذ آداب اللغة العربية في دار العلوم سابقاً ، والأستاذ عبد السلام القدواني أستاذ التاريخ والسياسة في دار العلوم سابقاً ، توجيهات وآراء سديدة . ومساعدات غالية ، وشكري وتقديري للأستاذ عبد الحفيظ البلياوي ، الذي ساعد المؤلف وتناول الكتاب بشرح الغريب وإيضاح الغامض ؛ توفي إلى رحمة الله في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١ هـ المصادف ١٠ أغسطس ١٩٧١ م .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه .

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

لعشر خلون من ربيع الأول ١٣٩١ هـ
٦ مايو ١٩٧١ م

ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

عباد الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ^(١) *
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ^(٢) لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا *
 وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ^(٣) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
 قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ^(٤) * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ^(٥) وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ^(٦) *
 وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
 بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^(٧) * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ^(٨) * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
 فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ^(٩) وَإِذَا
 مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا

- | | | | |
|-----|------------------------------------|-----|-----------------------|
| (١) | مضيئاً . | (٥) | لم يضيّقوا . |
| (٢) | أي هذا خلفاً من هذا يقال « من يمشي | (٦) | وسطاً . |
| | خِلْفَةً » أي تذهب هذه ونجيء هذه . | (٧) | عذاباً وعقوبة . |
| (٣) | أي بسكينة ووقار . | (٨) | ذليلاً حقيراً . |
| (٤) | ما يتوب الإنسان من شدة ومصيبة | (٩) | الباطل والشرك بالله . |

صُماً وَعُمِيَّانَا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ^(١) * أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعَرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا
تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خُلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ ^(٢)
رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ^(٣) * (صدق الله العظيم)
(سورة الفرقان)

(١) من يؤتم أي يقتدى به ج أئمة وأئمة.

(٢) لا يبالي بكم.

(٣) ملازماً.

سَيِّدَنَا مُوسَى

على نبينا وعليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ^(١) مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا^(٢) فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا^(٣)
يَسْتَضِعُّ^(٤) طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ^(٥) نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أُيُمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ^(٦) لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ^(٧) * وَأَوْحَيْنَا^(٨) إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ
أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ^(٩) وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ
إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ^(١٠) الْعَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ
عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَاغًا^(١١) إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا^(١٢) عَلَى

(١) الخبر ج أنباء.

(٢) تجبر وتكبر.

(٣) جمع شيعه وهي الفرقة.

(٤) أي يجعل ضعيفاً.

(٥) يستحي.

(٦) أي يجعل لهم سلطاناً وقدره.

(٧) يتحزرون.

(٨) ألهمنا.

(٩) البحر.

(١٠) لقطه أي أخذه بلا تعب.

(١١) أي خالياً من كل شيء سوى موسى.

(كما روى ابن عباس) أو خالياً من

الحزن.

(١٢) قوبنا يقال ربط الله على قلبه : قواه

وصبره.

قَلْبَهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ^(١) فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ^(٢) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ ^(٣) أَشَدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ^(٤) ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَايَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ ^(٥) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ^(٦) لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ^(٧) فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ^(٨) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوَى ^(٩) مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَنْ يَبْطِشَ ^(١٠) بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَسُوسِي أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

- | | | | |
|-----|--|------|---|
| (١) | اتبعني أثره . | (٤) | بقال : استوى الرجل أي انتهى شبابه وبلغ أشده . |
| (٢) | البعيد . | (٥) | بأبه ضرب . ضربه يجمع الكف . |
| (٣) | يقال بلغ فلان أشده أي قوته وفي القرآن حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة والأشد بفتح الهزة وضم الشين (كما في القرآن) والأشد بضمهما القوة وهو جمع لا واحد له أو واحد جاء على بناء الجمع . | (٦) | المعين . |
| | | (٧) | ينتظر . |
| | | (٨) | يستغيثه . |
| | | (٩) | الضال والمفاد للهوى . |
| | | (١٠) | بطش به فتك . |

الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ^(١) يَأْتُمِرُونَ^(٢) بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي
لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ^(٣) مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ^(٤) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا^(٥) قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ^(٦)
الرِّعَاءَ^(٧) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ
إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ
الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبْتَ
أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَيْرٌ مِنَ اسْتَجِرَّتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ
إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ^(٨) فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ
عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ
ذَلِكَ بَنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونِ عَلَىٰ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكَيلٌ .

(صدق الله العظيم)

(سورة القصص)

- (٦) يرجع مأخوذ من الصدور وهو الرجوع
عن الماء ويقابله الورد وهو الاتيان
إلى الماء .
(٧) جمع راع .
(٨) جمع حجة أي السنة .

- (١) أشراف القوم .
(٢) اتتمروا وتأمرؤا نشاوروا .
(٣) يقال جلس تلقاء أي تجاهه .
(٤) تدفعان ونطردان غنمهما عن الماء .
(٥) شالكما .

جَوَامِعُ الْكَلَامِ^(١)

لسيدنا ومولانا محمد^(٢) رسول الله ﷺ

أما بعد^(٣) فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق^(٤) العرى كلمة التقوى ،
وخير المثل^(٥) ملة إبراهيم ، وخير السنن^(٦) سنة محمد صلى الله عليه وسلم ،
وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها^(٧)
وشر الأمور محدثاتها^(٨) . وأحسن الهدى^(٩) هدى الانبياء ، وأشرف الموت
قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى . وخير العلم ما نفع . وخير الهدى
ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، والبد العلياً خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى
خير مما كثر وألهى^(١٠) وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة ،
ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً^(١١) ، وأعظم

- | | |
|---|--|
| (١) من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الكلمات الجامعة . | اللسان العربي . |
| (٢) سيدنا محمد رسول الله ﷺ أفصح العالمين لساناً ، وأبلغهم بياناً اجتمع له من صفات البليغ وخلال البيان من سليقة وبينة وخلق وذوق وصفاء حس وتمكن لسان وميراث ادب وموهبة حكمة ما لم يجتمع لأحد قبله ولا يجتمع لأحد بعده ، زد على ذلك أن لسانه مجرى الوحي فكان مرتعاً بعد السيل ، وحديث عن خضرته ونباته ، كان مطاع اللفظ ، مثقف اللسان ، فياض الخاطر جميل المذهب ، سهل اللفظ ، إماماً مجتهداً صاحب معجزات وآيات في | (٣) مبني على الضم لقطعه عن الإضافة . |
| (٤) المحكم والعرى جمع عروة وهي من الإبريق ونحوه مقبضة والعروة ما يوثق به وما يعول عليه . | (٤) المحكم والعرى جمع عروة وهي من الإبريق ونحوه مقبضة والعروة ما يوثق به وما يعول عليه . |
| (٥) جمع ملة وهي الشريعة . | (٥) جمع ملة وهي الشريعة . |
| (٦) جمع سنة وهي الطريقة . | (٦) جمع سنة وهي الطريقة . |
| (٧) جمع عازمة وأمر عازم أي معزوم عليه . | (٧) جمع عازمة وأمر عازم أي معزوم عليه . |
| (٨) جمع محدث وهو ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا اجماع . | (٨) جمع محدث وهو ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا اجماع . |
| (٩) السيرة . | (٩) السيرة . |
| (١٠) شغل . | (١٠) شغل . |
| (١١) بالفتح ترك ما يلزمك تعهده ، وبالضم الكلام القبيح . | (١١) بالفتح ترك ما يلزمك تعهده ، وبالضم الكلام القبيح . |

الخطايا اللسان الكذوب ^(١) ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله . وخير ما وقر ^(٢) في القلوب اليقين ، والارتباب ^(٣) من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية . والغلول ^(٤) من جثاء ^(٥) جهنم . والكتر كي ^(٦) من النار . والشعر من مزامير ^(٧) ابليس ، والخمر جُمَاع ^(٨) الاثم . والنساء حباله الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكّل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمّه ، وانما يصير أحدكم إلى موضع أربع اذرع ، والأمر بآخرته ، وملاك ^(٩) العمل خواتمه ^(١٠) ، وشر الروايا ^(١١) روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق وقتال المؤمن كفر . وأكل لحمة من معصية الله . وحرمة ماله كحرمة دمه . ومن يتأل ^(١٢) على الله يُكذِّبه . ومن يغفر يغفر الله له ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله . ومن يتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي اللهم اغفر لي ولأمتي استغفر الله لي ولكم ^(١٣) .

- | | |
|--|---|
| (١) الكثير الكذب والمراد به ههنا الكاذب | (٩) بفتح الميم وكسرها قوام الأمر . |
| (٢) ثبت بابه ضرب . | (١٠) جمع خاتم وهو عاقبة كل شيء . |
| (٣) ارتاب من الشيء أي شك فيه . | (١١) جمع رويّة وهو ما يروي الإنسان في نفسه من القول والفعل وقيل جمع |
| (٤) السرقة من مال الغنيمة . | راويّة للرجل الكثير الرواية وقيل جمع |
| (٥) جمع جثوة وهو الشيء المجموع وما جمع من نحو تراب فاستعير للجماعة . | رواية أي الذين يروون الكذب . |
| (٦) احراق الجلد بحديدة محمّاة أو نحوها . | (١٢) يحلف . |
| (٧) جمع مزمّار وهو الذي يزمّر فيه . | (١٣) البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن |
| (٨) ككتاب بالكسر والتخفيف ، وبالضم والتشديد مجتمع أصل كل شيء . | عقبة بن عامر الجهني . |

الخطبة المعجزة

عن ابي سعيد الخدري قال لما اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا الكبار في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد^(١) هذا الحي^(٢) من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة^(٣) حتى قال قائلهم لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عباد فقال يا رسول الله ان هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في انفسهم لما صنعت في هذا الفئ^(٤) الذي اصبت قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاما^(٥) في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال فأين انت من ذلك يا سعد ؟ قال يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ! قال فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة^(٦) قال فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردّهم فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« يا معشر الأنصار ما قاله بلغتنى عنكم وجدة^(٧) وجدتموها في انفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالاً فهذاكم الله بي ، وعالة^(٨) فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا الله ورسوله امنٌ وافضل ! ثم قال الا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل ! قال أما والله لو شتم

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) وَجَدَ يَجِدُ وَجِدًا وَجِدَةً وَمُوجِدَةً وَوَجِدَانًا | (٥) جمع عظيم . |
| عليه أي غضب . | (٦) الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه |
| (٢) البطن من بطون العرب ج أحياء . | الماشية فبقبها البرد والريح ج حظائر . |
| (٣) القول الفاشي في الناس خيراً كان أو | (٧) السخط والغضب . |
| شراً . | (٨) جمع عائل أي الفقير . |
| (٤) الغنيمة ج أفياء وفيء . | |

لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم اتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً ^(١) فنصرناك ،
وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك ^(٢) ، اوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في
انفسكم في لعاعة ^(٣) من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم الا
ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاء ^(٤) والبعر وترجعون برسول الله
إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ولولا الهجرة
لكنت امراً من الأنصار ولو سلك الناس شِعْباً ^(٥) ووادياً وسلكت الأنصار شِعْباً
ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادياً .

الأنصار شعار ^(٦) والناس دثار ^(٧) اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء
أبناء الأنصار قال فبكى القوم حتى أخضلوا ^(٨) لحاهم ^(٩) وقالوا رضينا برسول الله
صلى الله عليه وسلم قمماً وحطاً ^(١٠) .

- | | |
|--|---|
| <p>ج شِعَاب .
(٦) بالفتح والكسر وهو اللباس الذي يلي
شعر الجسد وهو كناية عن البطانة من
الناس والخاصة ج أشِعْرَة وشُعْر .
(٧) بالكسر الثوب الذي يستدفأ به من
فوق الشعار .
(٨) خضّل وأخضّل الشيء ندأه وبَلَّه .
(٩) جمع لحية أي شعر الخدين والذقن .
(١٠) زاد المعاد .</p> | <p>(١) الذي تُرك نصرته واعانته ج مخاذيل
بانه نصر .
(٢) أسى مواساة الرجل في ماله أي جعله
أسوته فيه .
(٣) نبت ناعم في أول ما يبدو ومنه إنما الدنيا
لعاعة أي أنها كالنبات الأخضر لا
بقاء لها .
(٤) جمع شاة .
(٥) بالكسر الطريق في الجبل ومسيل الماء
في بطن أرض وما انفرج بين الجبلين</p> |
|--|---|

في بني سعد

كانت حليلة بنت ابي ذؤيب السعدية ام رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ارضعته تحدثت انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ^(١) ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتبس الرضعاء ^(٢) قالت وذلك في سنة شهباء ^(٣) لم تبق لنا شيئاً ، قالت فخرجت على اتان لي قمراء ^(٤) معنا شارف ^(٥) لنا والله ما تبض ^(٦) بقطرة وما ننام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارقنا ما يغذيه (قال ابن هشام) ويقال يغذيه . ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت ^(٧) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ^(٨) حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها انه يتيم ، وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من ابي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى ان تصنع أمه وجدّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري . فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي والله اني لا كرهه أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذه ، قال لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت إليه فأخذه وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد

(٧) أي أطلت عليهم المسافة تمهلهم عليها مأخوذ من الشيء الدائم وفي سائر الأصول «أذمت» وأذمت الركاب أعيت وتخلفت عن جماعة الإبل ولم تلحق بها يريد أنها تأخرت بالركب أي تأخر الركب بسببها .
(٨) هزلاً .

(١) يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث .
(٢) جمع رضيع وهو الراضع .
(٣) أي سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر وهي ما لونها البياض إلى الخضرة يقال حمار أقمر وأتان قمراء .
(٤) المسنة الهرمة من النوق .
(٥) تسيل قليلاً قليلاً .
(٦) تسيل قليلاً قليلاً .

غيره . قالت فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري ^(١) أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شاربنا تلك فإذا انها لحافل ^(٢) فحلب منها ما ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة . قالت يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليلة ؟ لقد اخذت نسمة مباركة ، قالت فقلت والله اني لارجو ذلك ، قالت ثم خرجنا ولركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى ان صواحي ليقلن لي يا ابنة أبي ذؤيب ! ويحك اربعي ^(٣) علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لمن بلى والله انها لهي هي ، فيقلن والله إن لها لشأنا ، قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما اعلم أرضاً من أرض الله اجذب منها فكانت غنمي تروح علي . حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ^(٤) ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح اغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبنا فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباعاً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ^(٥) قالت فقدمنا به على أمه ونحن احرص شيء على مكته فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا امه وقلت لها لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ فأني اخشى عليه وباء مكة ، قالت فلم نزل بها حتى ردهه معنا . قالت فرجعنا به فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم ^(٦) لنا خلف بيوتنا إذ أتاانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه ، ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقاً بطنه فهما يسوطانه ^(٧) .

- (٦) الصغار من الغنم واحداً بجمعة .
(٧) يقال : سطت اللبن ، أو الدم أو غيرهما ، أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذي يضرب به : السوط .

- (١) حَضَنَ الإنسان ج حجور .
(٢) أي ممتلئة .
(٣) أربعي بنا وهوني علينا .
(٤) جمع راع .
(٥) غليظاً شديداً .

قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقماً^(١) وجهه . قالت فالترمته
والترمه أبوه ، فقلنا له ما لك يا بني ؟ ! قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض
فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قالت فرجعنا به إلى خباتنا ،
قالت وقال لي أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحق به بأهله
قبل أن يظهر ذلك به . قالت فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت ما أقدمك به
يا ظئر ؟ وقد كنت حريصة عليه وعلى مكانه عندك . قالت فقلت قد بلغ الله يا بني
وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه فأدبته عليك كما تحيين . قالت ما هذا
شأنك فاصدقني خبرك . قالت فلم تدعني^(٢) حتى أخرتها قالت أفنخوفت^(٣)
عليه الشيطان . قالت قلت نعم قالت كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل وإن لشيئاً
لشأننا أفلا اخبرك خبره . قالت قلت بلى قالت رأيت حين حملت به أنه خرج مني
نور أضاء لي قصور بصري من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط
كان أخف علي ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وأنه لو اضع يديه بالارض رافع رأسه
إلى السماء دعيه عنك وانطلق راشدة^(٤) .

(١) أي متغيراً وجهه لأمر أصابه .

(٢) فلم تركني .

(٣) أي خفت .

(٤) سيرة ابن هشام .

كيف هاجر النبي ﷺ

إن عائشة ^(١) زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لم اعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين . ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك ^(٢) الغماد لقيه ابن الدغنة - وهو سيد القارة ^(٣) - فقال ابن تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر اخرجني قومي فأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج انك تكسب المعدم ^(٤) وتصل الرحم وتحمل الكل ^(٥) وتقري ^(٦) الضيف وتعين على نوائب ^(٧) الحق ، فأنا لك جار ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج . اتخرجون رجلاً يكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب ^(٨) قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإننا نحشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره .

- | | |
|--|--|
| <p>(١) حبيبة رسول الله ﷺ وبنت خليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه من أكبر فقهاء الصحابة ، عاشت خمساً وستين وأقامت في صحبته ﷺ ثمانية أعوام وخمسة أشهر ، توفيت في سنة ٥٧ و قيل في سنة ٥٨ هـ .</p> <p>(٢) موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن .</p> | <p>(٣) قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمه .</p> <p>(٤) الفقير .</p> <p>(٥) الثقل وهو من الكلال الذي هو الإعياء أي تعين الضعيف المنقطع .</p> <p>(٦) قرى كضرب قرى وقراء الضيف اضافة .</p> <p>(٧) جمع نائبة أي المصيبة .</p> <p>(٨) أي فلم تستطع أن تخالف .</p> |
|--|--|

ثم بدا لأبي بكر فابتنى ^(١) مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف ^(٢) عليه نساء المشركين وأبناءؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك ^(٣) عينيه إذا قرأ القرآن وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقاموا إنسا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأنه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ^(٤) ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي . فإني لا أحب أن نسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر فإني أرد إليك جوارك وأرضي بجوار الله .

والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ^(٥) وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ومجهز ^(٦) أبو بكر قبل المدينة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك ^(٧) فإني أرجو أن يؤذن لي . فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول

- | | | |
|-----|--|--|
| (١) | أي بنى لنفسه . | حجارة سود . |
| (٢) | أي يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر . | (٦) تجهز للسفر اتخذ لوازمه ومجهز للأمر تيباً . |
| (٣) | أي لا يستطيع إمساكهما عن البكاء . | (٧) الرسل والرسلة التمهيل والتؤدة والرفق |
| (٤) | الاخفار هو نقض العهد . | يقال على رسلك يا رجل أي على مهلك وتأن . |
| (٥) | أي حرتين والحررة هي أرض ذات | |

الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف^(١) راحلتين كانتا عنده ورق السم - وهو الخبط^(٢) أربعة أشهر .

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة^(٣) قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقناً^(٤) في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي والله ما جاء في هذه الساعة إلا أمر ، قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أخرج من عندك ، فقال أبو بكر إنما هم أهلكت بأبي أنت يا رسول الله قال فإني قد أذن لي في الخروج . فقال أبو بكر الصحابة^(٥) بأبي أنت يا رسول الله ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ! قال أبو بكر فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمن ،

قالت عائشة فجهازنا أحت^(٦) الجهاز وصنعنا لهما سفرة^(٧) في جراب^(٨) فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها^(٩) فربطت به على فم الجراب فبذلك سُميت ذات النطاق ، قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنَّا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقیف^(١٠) لقين^(١١) فیدلج^(١٢) من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة

- | | |
|--------------------------------------|--|
| (١) علف الدابة أطعمها . | (٩) شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل |
| (٢) ما يخط بالعصا فيسقط من ورق الشجر | الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على |
| (٣) حد انتصاف النهار ج ظهائر ونحر | الأرض ج نُطَق . |
| (٤) الظهيرة أول الزوال . | (١٠) الحاذق الفطن . |
| (٥) المنعطي رأسه . | (١١) السريع الفهم . |
| (٦) أي أريد المصاحبة وأطلبها . | (١٢) أدلج الرجل إذا سار الليل في أوله |
| (٧) أي أسرع . | وقبل في كله وأدلج بالتشديد إذا سار |
| (٨) طعام المسافر . | في آخره . |
| (٩) بالكسر وعاء من جلد ج أجربة وجرب | |

كباثت ^(١) فلا يسمع أمراً يُكتادان ^(٢) به إلا وعاه ^(٣) حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام فيرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة ^(٤) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل ^(٥) وهو ابن منحتهمسا ورضيفهما ^(٦) حتى ينق ^(٧) بها عامر بن فهيرة بغلس ^(٨) يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الدئل - وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خريتا ^(٩) - والخريت الماهر بالهداية - قد غمس ^(١٠) حلقاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور - بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل .

قال ابن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشُم أن أباه أخبره أنه سمع سُرَاقَة بن جُعْشُم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدَلِج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال يا سُرَاقَة إني قد رأيت آنفاً ^(١١) أسودة ^(١٢) بالساحل أراها

- | | |
|--|--|
| (١) كمن بات بمكة يظهر ذلك للكفار . | (٨) ظلمة آخر الليل ج أغلاس . |
| (٢) اكتاده اكتياداً احتال عليه ومكر به . | (٩) الدليل الحاذق الذي يهتدي إلى آخرات |
| (٣) وعى كضرب وعياً الحديث أي تدبره وحفظه . | المفاوز وهي مضايقتها وطرقها الخفية ج خرايرت وخرايرات . |
| (٤) شاة تحلب أثناء بالغداة وأثناء بالعشي . | (١٠) غمس كضرب غمساً أدخل ، يريد أنه |
| (٥) اللبن الطري . | كان حليفاً لهم وأخذ بنصيب من عقدهم |
| (٦) الرضيف والرضيفة اللبن الذي يغلي بالرضفة أي الذي طرحت فيه الحجارة المحماة . | وكانوا إذا تحالفوا غمسوا إيمانهم في دم أو خلوق أو نحوها من شيء فيه تلوين فيكون ذلك تأكيداً للحلف . |
| (٧) نقق كفتح نَعَقاً ونَعِيقاً ونُعَاقاً ونَعَمَاناً الراعي يغممه صاح بها وزجرها . | (١١) أي من وقت قريب . |
| | (١٢) جمع سواد أي الشخص ج جمع أسود . |

محمداً و أصحابه قال سراقه فعرفت إنهم هم فقلت له أنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ^(١) ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة ^(٢) فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجّه ^(٣) الأرض وخفضت عليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب ^(٤) بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقممت فأهويت ^(٥) يدي إلى كنانتي ^(٦) فاستخرجت منها الأزام ^(٧) فاستقسمت بها أضُرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصبت الأزام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت ^(٨) يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع ^(٩) في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزام الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جثتهم ووقع في نفسي - حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم - أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأني ^(١٠) ولم يسألاني إلا ان قال أخف عنا فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من آدم ^(١١) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- | | |
|---|---|
| <p>(٨) ساخ يسوخ سوخاً في الطين غاص فيه وغاب .</p> <p>(٩) سطع كفتح سطعة وسطوعاً وسطيماً الغبار أو الرائحة أو النور ارتفع وانتشر .</p> <p>(١٠) رزأ كفتح رزأ ورزأ ومرزنة الرجل ماله أصاب منه شيئاً مهما كان أي نقصه .</p> <p>(١١) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ ج آدم وأدم وأدime وآدام .</p> | <p>(١) أي في نظرنا معاينة .</p> <p>(٢) قطعة أرفع قليلاً مما حولها ج أكم وأكمات جيج آكام وأكمم وأكام .</p> <p>(٣) الحديد في أسفل الرمح .</p> <p>(٤) التقريب سير دون العدو .</p> <p>(٥) أي مددت يدي</p> <p>(٦) جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام ج كنانن وكنانات .</p> <p>(٧) جمع زلم سهم لا ريش عليه وكان العرب في الجاهلية يستقسمون بها .</p> |
|---|---|

قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين ^(١) من الشام ، فكسا ^(٢) الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ^(٣) فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فالتقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى ^(٤) رجل من يهود على أطم ^(٥) من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين ^(٦) يزول بهم السراب ^(٧) فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ! هذا جدكم ^(٨) الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو ^(٩) بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيئ أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع ^(١٠) عشرة ليلة وأسس ^(١١) المسجد الذي أسس على

- | | |
|---|---|
| <p>فيه للعين .
 (٨) حظكم وصاحب دولتكم .
 (٩) أي بقاءه . وكان نزوله ﷺ على كلثوم ابن الهدم .
 (١٠) بالكسر والفتح ما بين الثلاث إلى التسع يقال بضع سنين وبضع عشرة من النساء وبضع وعشرون امرأة ومع المذكر بضعه عشر من الرجال وبضعة وعشرون رجلاً ويجب تقديم بضع فلا يقال عشرون وبضع .
 (١١) جعل أساساً .</p> | <p>(١) قفل كضرب ونصر قفلاً قفولاً رجع من السفر خاصة والقافلة الرفقة الراجعة من السفر أو المتدثرة به تفاؤلاً بالرجوع ج قوافل .
 (٢) كسا يكسو كسوا الثوب فلاناً البسه .
 (٣) أرض ذات حجارة سود .
 (٤) أشرف وطلع .
 (٥) القصر وكل حصن مبني بحجارة ج آطام .
 (٦) اللابسين ثياباً بيضاً .
 (٧) أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له وقيل أي ظهر حركتهم</p> |
|---|---|

التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت ^(١) عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً ^(٢) للتمر لسُهيل وسَهْل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زُرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا - ان شاء الله - المنزل .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما ^(٣) بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً وطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبَن ^(٤) في بنيانه ويقول - وهو ينقل اللبَن - هذا الحمل ^(٥) لاحتال خير . هذا ابر ربنا وأطهر ، ويقول اللهم إن الأجر أجز الآخرة . فارحم الأنصار والمهاجرة - فتمثل ^(٦) بشعر رجل من المسلمين لم يُسمَّ لي . قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببیت شعر تام غير هذه الأبيات ^(٧) .

- | | |
|---|---|
| <p>(٥) الحمل والحمل بمعنى أي ليس كحمل خير من التمر والتمر وربنا بالنصب منادى .</p> <p>(٦) أي أنشد بيتاً .</p> <p>(٧) الجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة .</p> | <p>(١) برك كنصر بروكاً وتبراكاً البعير استناخ وهو أن يلقص صدره بالأرض .</p> <p>(٢) الموضع الذي يجفف فيه التمر .</p> <p>(٣) ساوم سواماً وسامومة بالسعة غالي بها أي عرضها بثمن دفع المشتري أقل منه وهكذا إلى أن يتفقا على الثمن .</p> <p>(٤) جمع لبنة أي المضروب من الطين مربعاً للبناء .</p> |
|---|---|

ابتلاء كعب بن مالك رضي الله عنه

قال كعب لم أخلف ^(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير اني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواتقنا ^(٢) على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر في الناس منها .

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر ^(٣) حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى ^(٤) بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ^(٥) وعدواً كثيراً فجئني ^(٦) للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة ^(٧) غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أنه سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال . وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أعذو لكي أتجهّز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي وأنا قادر عليه فلم يزل يتأدى ^(٨)

- | | |
|-----|-----------------------------------|
| (٦) | كشف وأوضح . |
| (٧) | العدّة والجهاز وتأهب اهتبه أي أخذ |
| | عدنه وتجهّز . |
| (٨) | يستمر . |

- | | |
|-----|---------------------------|
| (١) | لم أتأخر . |
| (٢) | تعاقدنا وتعاهدنا . |
| (٣) | ذو غنى . |
| (٤) | أرادته وأظهر غيره . |
| (٥) | بالفتح فلاة لا ماء فيها . |

بي حتى اشتد بالناس الجدد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ولم أقص من جهازني شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقص شيئاً . ثم غدوت فرجعت ولم أقص شيئاً فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط (١) الغزو وهممت أن أرتحل فأدرتهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فظفت فيهم أحزنتني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً (٢) عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .

ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوكا فقال - وهو جالس في القوم بتبوك - ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره في عطفه (٣) فقال معاذ بن جبل بثس ما قلت والله - يا رسول الله - ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب بن مالك فلما بلغني انه توجه قافلاً حضرنني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه (٤) غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي .

فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قافلاً زاح (٥) غني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت (٦) صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم (٧) إلى الله فجثته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم

- | | |
|---|---|
| (١) تفارط الشيء تأخر وقته يقال تفارطت الصلاة عن وقتها إذا تأخرت عنه . | (٤) ضد الرضى وقيل إنه لا يكون إلا من الكبراء والعظماء وبانه سمع . |
| (٢) رجل مغموص عليه أي مطعون عليه في حبه ودينه بابه ضرب وسمع . | (٥) زال . |
| (٣) عطف الرجل جانبه ج أعطاف وعطاف وعطوف . | (٦) أي عزم أن أصدق له . |
| (٧) جمع سريرة السر الذي يكتم ، ما يسره الإنسان من أمره ، النية . | (٧) جمع سريرة السر الذي يكتم ، ما يسره الإنسان من أمره ، النية . |

قال تعال فجيئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلّفتك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت بلى أني - والله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني لبوشكن الله أن يسخطك عليّ ولئن حدثتك حديث صدق تجد ^(١) علي فيه أني لأرجو فيه عفو الله .

لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله عليك فقممت وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . فوالله ما زالوا يؤنبوني ^(٢) حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قال ما مثل ما قلت فقليل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرأ فيهما أسوة ^(٣) ، فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة ^(٤) من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائي فاستكانا ^(٥) وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ^(٦) فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برّد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه ^(٧) النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل اليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني

- | | |
|--------------------------------------|---|
| (١) أي تغضب عليّ . | (٥) استكان استكانة أي خضع وذل . |
| (٢) أي يلومونني أشد اللوم . | (٦) جلد ككرم جلد أو جلادة وجلودة |
| (٣) القدوة . | ومجلوداً كان ذا قوة وصبر وصلابة . |
| (٤) بالرفع بمعنى الاختصاص أي متخصصين | (٧) نظر الواحد منهما إلى الآخر اختلاصاً |
| من بين سائر الناس . | بحيث لا يشعر غيرهما بذلك . |

حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت (١) جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام فقلت يا أبا قتادة ! انشدك (٢) بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال : - الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : - من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان (٣) فإذا فيه :

أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك (٤) .

فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت (٥) بها التّور (٦) فسجّرت (٧) بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعترها ولا تقر بها ، وأرسل إليّ صاجي مثل ذلك فقلت لا مرأتى الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر . قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه - والله - ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله

- | | |
|--|---|
| <p>(٤) المواساة لغة في آساء مؤاساة أي عاونه .
(٥) فصلت .
(٦) أنث الفصير على إرادة الصحيفة .
(٧) سجر كنصر سجر التور أي ملأه وقوداً وأحماء .</p> | <p>(١) تسوّرت الحائط وعليه صعد عليه .
(٢) نشده كنصر وضرب تشدأ أو نشداناً ونشدة الله وبالله استحلّقه أي سأله وأقسم عليه بالله .
(٣) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ومنهم بنو جفنة .</p> |
|--|---|

عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضائق علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى ^(١) على جبل سع بأعلى صوته :

يا كعب بن مالك ! أبشر . قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض ^(٢) إلي رجل فرساً وسعى ساع من اسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من القرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبتلثاني الناس فوجاً فوجاً بهنوثي بالتوبة يقولون لتهنئك توبة الله عليك . قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول ^(٣) حتى صافحني وهنأني . والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة . قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال لا بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ! إن من توبي أن

(١) أشرف وطلع .

(٢) ركض كنصر ركضا الفرس برجليه استحثه للعدو .

(٣) هرول هرولة أسرع في مشيه .

الخلع ^(١) من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
امسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت فإني أمسك سهمي الذي بخير فقلت
يا رسول الله ! إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما
بقيت . فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت
ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني ، وما تعمدت
منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو
أن يحفظني الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
إِلَى قَوْلِهِ وَكَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني
للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك
الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال
الله تبارك وتعالى : (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ^(٢)) .

(١) أخرج

(٢) حديث كعب بن مالك كتاب المغازي صحيح البخاري .

مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال عمرو بن ميمون إني لقائم ما بيني وبينه - يعني عمر - إلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما غداة أصيب وكان إذا مرَّ بين الصفين قال استوتوا ، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبرَ وربما قرأ بسورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبرَ فسمعته يقول :
قتلني أو أكلني الكلب .

حين طعنه فطار العليج ^(١) بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة .
فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً ^(٢) ، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه .

وتناول عمر رضي الله عنه يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقدمه (أي للإمامة) فن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير أنهم قد فقلوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال عمر :

يا ابن عباس ! أنظر من قتلني ؟

قال فجاء (ابن عباس) ساعة ثم جاء فقال :

غلام المغيرة .

قال الصنع ^(٣) ؟ قال نعم .

(١) بالكسر الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموماً ج علوج واعلاج وعليجة وهو هنا أبو لؤلؤة واسمه فيروز وكان مجوسياً .

(٢) قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام وكل ثوب . يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به .

(٣) بفتحيتين وبالفتح والكسر وسكون النون حاذق في الصنعة ماهر في عمل اليدين .

قال قاتله الله لقد أمرت به معروفاً .
الحمد لله الذي لم يجعل ميتي بيد رجل يدعي الاسلام ، قد كنت أنت وأبوك
تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ^(١) .
وكان العباس أكثرهم رقيقاً ^(٢) فقال ابن عباس رضي الله عنهما ان شئت
فعلت (أي ان شئت قتلنا) .
قال كذبت ^(٣) بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا قبلتكم ، وحجوا حجكم
فاحتمل إلى بيته رضي الله عنه فانطلقنا معه ، قال : -
وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقاتل يقول : -
لا بأس .
وقاتل يقول : - أخاف عليه .
فاتى بنيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب فخرج من جوفه فعرفوا
أنه ميت .
فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يشنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : -
أبشر يا أمير المؤمنين ! يبشرى الله ، لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة .
قال وددت أن ذلك كان كفافاً ^(٤) لا علي ولا لي ، فلما أدبر إذا أزاره
يمس الأرض فقال : -
ردوا علي الغلام .
فقال يا ابن أخي ! ارفع ثوبك فانه أنقى لثوبك ، وأنقى لربك .
- يا عبد الله بن عمر ! انظر ما علي من الدين ؟

(١) كان عمر رضي الله عنه يكره كثرة سبائا
الفرس في مركز الإسلام وعاصمة
الخلافة ويحذر من اختلاطهم بالمسلمين
وافسادهم .
(٢) المملوك للواحد والجمع يقال عبد رقيق
(٣) أي أخطأت .
(٤) أي مقدار الحاجة من غير زيادة ولا
نقصان .

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، قال ان وقي له مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، والا فسل في بني عدي ^(١) بن كعب فان لم تفِ أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدّهم ^(٢) إلى غيرهم فأدّ عني هذا المال .

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقلّ يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه .

قال فسلم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال : - يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام . ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده نفسي ولاؤثرن به اليوم على نفسي .

فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء .

فقال : - ارفعوني فأسنده رجل اليه .

فقال : - ما لديك ؟

قال الذي تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت .

فقال الحمد لله ، ما كان شيء أهم إليّ من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل : - يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني ، وان ردّني فردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها والنساء تسير معها ، فلما رأبناها قمنا فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت ^(٣) داخلاً ^(٤) لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا :

أوص يا أمير المؤمنين ! استخلف .

قال ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط ^(٥) الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

- | | |
|--|--|
| <p>(١) قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .</p> <p>(٢) أي متجاوزهم .</p> <p>(٣) ولج يلج ولوجاً ولجة البيت وولج الشيء</p> | <p>(٤) أي متجاوزهم .</p> <p>(٥) الرهط الجساعة دون العشرة .</p> |
|--|--|

فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم
وقال : -

يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء (كهينة التعزية له) (١)
فان أصابت الا مرة سعداً فهو ذلك ، والا فليستعن به أيكم ما أمر ، فاني لم أعزله
من عجز ولا خيانة .

وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ
لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً - الذين تبوأوا (٢) الدار والايمان من قبلهم -
أن يقبل من محسنهم وأن يعفي عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فانهم
ردء (٣) الاسلام وجباة (٤) المال وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن
رضاهم . وأوصيه بالأعراب خيراً فانهم أصل العرب ومادة (٥) الاسلام أن يؤخذ
من حواشي (٦) أموالهم وترد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله
عليه وسلم أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا الا طاقهم .

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر .

قال يستأذن عمر بن الخطاب . قالت (أي عائشة) :

أدخلوه فأدخل . فوضع هنالك مع صاحبيه ،

فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن :

اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي .

وقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان .

- | | |
|--|---|
| <p>(١) أي قال له يشهدكم عبد الله بن عمر
وقد قال له ذلك كهينة التعزية له لأنه
لما أخرجه من الخلافة أراد جبر خاطره
بأن يجعله من أهل المشاورة .</p> <p>(٢) أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين
وآمنوا قبل كثير منهم .</p> <p>(٣) أي الناصر .</p> | <p>(٤) جمع الجاني أي الجامع جبا كنصر
وجبي كضرب الخراج أي جمعه .</p> <p>(٥) المادة كل شيء يكون مدداً لغيره ويقال
دع في الضرع مادة اللبن ، والأعراب
مادة الإسلام .</p> <p>(٦) جمع الحاشية وهي من صغار الناس
والإبل لا كبار فيهم .</p> |
|--|---|

وفال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف .
فقال له عبد الرحمن : أيكما تَبَرَأ من هذا الأمر فنجعله إليه . والله عليه
والاسلام ^(١) لينظرون أفضلهم في نفسه .
فأسكتَ الشيخان . فقال عبد الرحمن :
أفتجعلونه إليّ ؟ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكم .
قالا : - نعم .

فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم
في الاسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن
ولتطيعن .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال :
ارفع يدك يا عثمان !

فبايعه فبايع له علي رضي الله عنه وولج أهل الدار ^(٢) فبايعوه ^(٣)

(١) بالرفع فهما والخبر محذوف أي عليه رقيب .

(٢) أي أهل المدينة وفي القرآن والذين تبوأوا الدار والإيمان .

(٣) صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أخلاق المؤمن

للحسن البصري (١)

هيات هيات أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجلاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيماً (٢) ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئل أمؤمن أتت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين ، ان من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيماناً في يقين . وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم ، وكيساً في رفق ، وتجملاً في فاقة ، وقصداً في غنى . وشفقة في نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء في الحقوق ، وانصافاً في استقاة ، لا يحيف (٣) على من يغيض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، ولا يهز (٤) ، ولا يغمز (٥) ، ولا يلمز (٦) ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا

(١) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري كان من سادات التابعين وكبرائهم . جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة زوجة النبي ﷺ وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها نديها تعلله به إلى أن تجي ، أمه قدر عليه نديها فشربه فيرون أن تلك الحكمة والنصاحة من بركة ذلك . قال أبو عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي . فليل له فأيهما كان أفصح قال : الحسن ! ومولد الحسن لسنتين بقينا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ويقال إنه ولد على الرق وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة .

(٢) الصوت الخفي .

(٣) لا يظلم .

(٤) لا يقتاب .

(٥) لا يظعن .

(٦) لا يعيب .

يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له . ولا يجحد ^(١) الحق الذي عليه ، ولا يتجاوز في العذر ، ولا يشمت ^(٢) بالفجيعة ^(٣) إن حلت بغيره . ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمن في الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغتم ، إن أحسن استبشر ، وإن أساء استغفر ، وإن عتب استعتب ^(٤) ، وإن سفه عليه حلم ، وإن ظلم صبر ، وإن جبر عليه عدل ، لا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين إلا بالله ، وقور في الملأ ، شكور في الخلا . قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابر على البلاء . إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الأول فالأول . حتى لحقوا بالله عز وجل . وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح . وإما غيركم لما عزتم ثم تلا : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِتَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِتَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ^(٥) .

(١) لا ينكر .

(٢) لا يفرح .

(٣) الرزية وهي المصيبة فجائع .

(٤) استرضاه .

(٥) سيرة الحسن البصري لعبد الرحمن ابن الجوزي .

اخوان الصفا

لابن المقفع (١)

.... فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى . فدُعرت (٢)
منه السلحفاة فغاصت في الماء وخرج الجرذ (٣) إلى جُحره (٤) وطار الغراب
فوقع على شجرة . ثم ان الغراب حلق (٥) في السماء لينظر هل للظبي طالب ؟ فنظر
فلم ير شيئاً . فنادى الجرذ والسلحفاة . وخرجا ، فقالت السلحفاة للظبي : حين
رأته ينظر إلى الماء اشرب ان كان بك عطش . ولا تحف فإنه لا خوف عليك . فدنا
الظبي فرحبت به السلحفاة وحيته . وقالت له من أين أقبلت ؟ قال كنت أسنح (٦)
بهذه الصَّحاري فلم تزل الاساورة (٧) تطردني من مكان إلى مكان ، حتى رأيت
اليوم شبحاً (٨) . فخفت أن يكون قانصاً (٩) . قالت : لا تحف فإننا لم نر ههنا قانصاً

(١) هو عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة نبغ في الكتابة في اللغتين الفارسية والعربية واستكتب في عهد بني أمية وأسلم في عهد بني العباس وقُتل في عهد المنصور سنة ١٤٢ . ابن المقفع أمة في الأدب والإنشاء صاحب طريقة في الكتابة عرفت به وأخذت عنه وهي طريقة سهلة جارية مع الطبع عامرة بالمعاني خفيفة اللفظ ، للقلب والعاطفة فيها حظ قليل إلا ما كان تعبيراً عن وجدانه وتمثيلاً لأخلاقه كالصدقة والمروءة ، والرجل آية في الترجمة لا تشم منها رائحة الترجمة ولا تميز النقل عن الوضع ، وكتابه كلبية ودمنة الذي ترى أمثولة في فصل اخوان الصفا مثال خالد للترجمة .

(٢) دهشت بابه سمع .

(٣) نوع من الفأرج جردان .

(٤) بالضم مكان تحتفزه السباع والهوام لأنفسها أجحار وأجحرة وأجحرة .

(٥) ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة .

(٦) سَنَح الظبي والطير وغيرهما سَنَحاً مَرَّ من المباسر إلى الميامن ولكن المراد هنا أنه يرتع ويرعى .

(٧) جمع أسوار بالضم والكسر الرامي بالسهم .

(٨) الشخص ج شيوخ وأشباح .

(٩) الصياد .

قط ، ونحن نبذل ودنا ومكاننا ، والسماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش ^(١) يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار .

فبينما الغراب والجرد والسلحفاة ذات يوم في العريش ، غاب الظبي فتوقعوه ساعة ، فلم يأت . فلما أبطأ أشفقوا أن يكون قد أصابه عنت ^(٢) فقال الجرد والسلحفاة للغراب : أنظر هل ترى مما يلينا شيئاً ؟ فحلّق الغراب في السماء ، فنظر . فإذا الظبي في الجبال مقتنصاً ، فانقضّ ^(٣) مسرعاً فأخبرهما بذلك فقالت السلحفاة والغراب للجرد : هذا أمر لا يرجى فيه غيرك فأغث أخاك . فسعى الجرد مسرعاً فأتى الظبي فقال له : كيف وقعت في هذه الورطة ^(٤) وأنت من الأكياس ^(٥) ؟ قال الظبي ، هل يغني الكيس مع المقادير شيئاً ؟ فبينما هما في الحديث إذواقتهما السلحفاة . فقال لها الظبي : ما أصبت بمجيثك الينا : فان القانص لو انتهى الينا وقد قطع الجرد الجبال استبقته عدواً ، وللجرد أجحار كثيرة . والغراب يطير وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة . وأخاف عليك القانص . قالت : لا عبش مع فراق الأحبة وإذا فارق الأليف ^(٦) أليفه فقد سلب فؤاده . وحرّم سروره . وغشّي بصره ، فلم ينته كلامها حتى وافى القانص . ووافق ذلك فراغ الجرد من قطع الشّرك . فنجّا الظبي بنفسه . وطار الغراب محلّقاً ودخل الجرد لبعض الأجحار . ولم يبق غير السلحفاة ، ودنا الصياد فوجد جباله مقطعة . فنظر يميناً وشمالاً فلم يجد غير السلحفاة تدب ، فأخذها وربطها فلم يلبث الغراب والجرد والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة فاشتدّ حزنهم ، وقال الجرد : ما أرانا نجاوز عقبة ^(٧) من البلاء إلا صرنا في أشد منها ولقد صدق الذي قال : لا يزال الإنسان

(١) مكان يستظل به ج عريش

(٢) الوقوع في أمر شاق .

(٣) هوى ليقع .

(٤) الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه ج

ورطاط ووراط .

(٥) جمع كيس وهو الفطن الظريف .

(٦) المحب ج الأنف .

(٧) بفتحين المرقى الصمب من الجبال ج

عقاب وعقبات .

مستمراً في إقباله ما لم يعثر ، فإذا عثر لَجَّ^(١) به العِثَار ، وإن مشى في جَدَد^(٢) الأرض . وحذري على السلحفاة خير الأصدقاء التي خَلَّتْهَا ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خَلَّة^(٣) الكرم والشرف خلة هي أفضل من خلة الوالد لولده خَلَّة لا يزيلها إلا الموت ، ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب ، ولا بدوم له شيء ، ولا يلبث معه أمر كما لا بدوم للطلع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفل^(٤) لكن لا يزال الطالع منها آفلاً والآفل منها طالماً ، وكما تكون آلام الكلوم^(٥) وانتقاض^(٦) الجراحات ، كذلك من قرحت كلومه يفقد اخوانه بعد اجتماعه بهم . فقال الظبي والغراب للجرذ : ان حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان نليغاً كلُّ منها لا يغني عن السلحفاة شيئاً . وانه كما يقال : إنما يحتسب الناس عند البلاء ، ودو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهل والولد عند الفاقة كذلك يحتسب الأخوان عند النوائب . قال الجرذ : أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي ! فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك وأسعى أنا فأكون قريباً من القانص مراقباً له لعله أن يرمي ما معه من الآلة ويضع السلحفاة ويقصدك طامعاً فيك ، راجياً تحصيلك ، فإذا دنا منك فغير عنه رويداً بحيث لا ينقطع طمعه منك ومكته من أخذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا وانح منه هذا النحو ما استطعت : فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبال عن السلحفاة وأنجو بها ، ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ ، وتبعهما القانص فاستجره^(٧) الظبي حتى أبعدته عن الجرذ والسلحفاة ، والجرذ مقبل على قطع الحبال حتى قطعها ونجا بالسلحفاة ، وعاد القانص مجهوداً^(٨) لاغباً^(٩) فوجد

- | | |
|--------------------------------------|------------------------------------|
| (١) تَمَادَى . | أي عاود . |
| (٢) الأرض الغليظة المستوية ج أجداد . | أي جره . |
| (٣) الصداقة . | جهده الشيء أتعبه وأعياه . |
| (٤) أفل كضرب ونصر وسمع أفلوا القمر | (٥) لغب كفتح ونصر وكرم لغبا ولغوبا |
| غاب فهو أفل ج أفل وأقول . | ولغب لغباً تعب وأعبأ أشد الإعياء |
| (٥) جمع كلم وهو الجرح . | فهو اللاغب ج لغب . |
| (٦) يقال انتقض الجرح بعد برئه نكس | |

حبالته مقطعة ففكر في أمره مع الظبي المتطلع^(١) فظن انه خولط^(٢) في عقله .
وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه ، وقرض حبالته ، فاستوحش من
الأرض وقال : هذه أرض جن أو سحرة ، فرجع مُوَلِّياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت
إليه ، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن
ما كانوا عليه .

فإذا كان هذا الخلق مع ضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الملكة
مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم
ببعض ، فالإنسان الذي قد أُعطي العقل والفهم ، وأُهم الخير والشر ، ومنح التمييز
والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاقد^(٣) ، فهذا مثل اخوان الصفاء والثلانهم
في الصحبة^(٤) .

(١) تظَلَّع أي أظهر أنه ظالع .

(٢) أي أصابه جنون .

(٣) التعاون .

(٤) من كتاب كلية ودمنة لابن المقفع فصل الحمامة المطوقة .

وصف الزاهد

لابن السماك^(١)

قال ابن السماك حين مات داؤد الطائي^(٢) يا أيها الناس ! ان اهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس وتعب الأبدان مع شدة الحساب فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا والآخرة . والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة وان داؤد الطائي نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأغشى بصر قلبه بصر العيون فكأنه لم يبصر ما اليه تنظرون وكأنكم لا تبصرون ما اليه ينظر . فأنتم منه تعجبون وهو منكم يتعجب . فلما نظر اليكم راغبين مغرورين قد ذهبت على الدنيا عقولكم . وماتت من حبها قلوبكم . وعشقتها أنفسكم وامتدت اليها ابصاركم استوحش الزاهد منكم لأنه كان حياً وسط موتى . يا داؤد ! ما أعجب شأنك ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل ، أهنتها وإنما تريد كرامتها . وأدلتها وإنما تريد اعزازها . ووضعتها وإنما تريد تشريفها ،

(١) كان زاهداً عادياً . حسن الكلام . صاحب مواعظ . روى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ، كوفي قدم بغداد زمن هرون الرشيد فكتب بها مدة ثم رجع إلى الكوفة فأت بها سنة ١٨٣ هـ (ابن خلكان) .

(٢) هو داؤد بن نصير الطائي كان من الزهاد المحدثين شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه ثم اختار العزلة والانفراد والخلة فلزم العبادة وتعفف عن قبول عطايا الملوك . قيل إنه صام أربعين سنة ما علم به أهله ، قدم هرون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء وأمر لكل واحد منهم بألفي درهم . وكتب داؤد الطائي من جملتهم فدعاه باسمه فقبل له إن داؤد لم يعلم . فقال أرسلوها إليه فقال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة نحن نذهب بها إليه ، وقال ابن السماك لحماذ في الطريق اثرها بين يديه فإن للعين حظاً . رَجُل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردها ؟ فلما دخلا عليه نثراها بين يديه فقال لهما إنما يفعل هذا بالصبيان ! وأنى أن يقبلها . قال محارب بن دثار لو كان داؤد في الأمم الماضية لقص الله تعالى شيئاً من خبره ، توفي سنة ستين أو خمس وستين ومائة (ابن خلكان) .

وأَتَعَبَهَا وَإِنَّمَا تَرِيدُ رَاحَتَهَا . وَأَجَعَلَهَا وَإِنَّمَا تَرِيدُ شَبْعَهَا . وَأَظْلَمَاتُهَا وَإِنَّمَا تَرِيدُ رِيحَهَا . وَخَشِنَتِ الْمَلْبَسَ وَإِنَّمَا تَرِيدُ لِينَهُ . وَجَشَبَتْ^(١) الْمَطْعَمَ وَإِنَّمَا تَرِيدُ طَيِّبَهُ . وَأَمَتَ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ . وَقَبَرَتَهَا قَبْلَ أَنْ تَقْبَرَ . وَعَذَّبَتَهَا قَبْلَ أَنْ تَعَذَّبَ . وَغَيَّبَتَهَا عَنِ النَّاسِ كَيْ لَا تَذْكَرَ . وَغَبْتَ بِنَفْسِكَ عَنِ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ فَمَا أَظْنُكَ إِلَّا قَدْ ظَفَرْتَ بِمَا طَلَبْتَ . كَانَ سِيْمَاكَ^(٢) فِي عَمَلِكَ وَسِرْكَ . وَلَمْ يَكُنْ سِيْمَاكَ فِي وَجْهِكَ . فَفَقِهْتَ فِي دِينِكَ ثُمَّ تَرَكْتَ النَّاسَ يَفْتُونُ . وَسَمِعْتَ الْأَحَادِيثَ ثُمَّ تَرَكْتَ النَّاسَ يَحْدِثُونَ وَيُرْوُونَ . وَخَرَسْتَ عَنِ الْقَوْلِ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَنْطَقُونَ . لَا تَحْسُدِ الْأَخْيَارَ . وَلَا تَعِيبِ الْأَشْرَارَ . وَلَا تَقْبَلِ مِنَ السُّلْطَانِ عَطِيَّةً ، وَلَا مِنَ الْإِخْوَانِ هَدِيَّةً . آتَسْ مَا تَكُونُ إِذَا كُنْتَ بِاللَّهِ خَالِيًا وَأَوْحَشْ مَا تَكُونُ إِذَا كُنْتَ مَعَ النَّاسِ جَالِسًا . فَأَوْحَشْ مَا تَكُونُ آتَسْ مَا يَكُونُ النَّاسُ . وَآتَسْ مَا تَكُونُ أَوْحَشْ مَا يَكُونُ النَّاسُ . جَاوَزْتَ حَدَّ الْمَسَافِرِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ ، وَجَاوَزْتَ حَدَّ الْمَسْجُونِينَ فِي سَجُونِهِمْ . فَأَمَّا الْمَسَافِرُونَ فَيَحْمِلُونَ مِنْ الطَّعَامِ وَالْحَلَاوَةِ مَا يَأْكُلُونَ فَأَمَّا أَنْتَ فَانْمَا هِيَ خَبِزَتُكَ أَوْ خَبِزَتَانِ فِي شَهْرِكَ تَرْمِي بِهَا فِي دَنٍ^(٣) عِنْدَكَ فَإِذَا أَفْطَرْتَ أَخَذْتَ مِنْهُ حَاجَتَكَ فَجَعَلْتَهُ فِي مَطْهَرَتِكَ ثُمَّ صَبَبْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ مَا يَكْفِيكَ ثُمَّ اصْطَبَغْتَ بِهِ مِلْحًا فَهَذَا إِدَامُكَ وَحُلُوكُ فَمَنْ سَمِعَ مِثْلَكَ صَبَرَ صَبْرَكَ أَوْ عَزَمَ عَزْمَكَ وَمَا أَظْنُكَ إِلَّا قَدْ لَحِقْتَ بِالْمَاضِينَ . وَمَا أَظْنُكَ إِلَّا قَدْ فَضَلْتَ الْآخِرِينَ . وَلَا أَحْسِبُكَ إِلَّا قَدْ أَتَعَبْتَ الْعَابِدِينَ . وَأَمَّا الْمَسْجُونُونَ فَيَكُونُ مَعَ النَّاسِ مَحْبُوسًا فَيَأْتَسُ بِهِمْ وَأَنْتَ فَسَجَنْتَ نَفْسَكَ فِي بَيْتِكَ وَحَدَّكَ فَلَا مَحْدَثَ وَجَلِيسَ مَعَكَ وَلَا أَدْرِي أَيُّ الْأُمُورِ أَشَدُّ عَلَيْكَ الْخُلُوةُ فِي بَيْتِكَ تَمُرُّ بِكَ الشُّهُورُ وَالسَّنُونَ أَمْ تَرَكْتَ لِمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ ، لَا سِتْرَ عَلَى بَابِكَ وَلَا فِرَاشَ تَحْتِكَ . وَلَا قِلَّةً^(٤) يَبْرُدُ فِيهَا مَأْوُكَ . وَلَا قِصْعَةً^(٥) يَكُونُ فِيهَا غَدَاؤُكَ وَعِشَاؤُكَ . مَطْهَرَتِكَ قِلَتُكَ وَقِصْعَتِكَ تَوْرُكُ^(٦) وَكُلُّ أَمْرِكَ يَا دَاوُدَ عَجَبٌ أَمَّا كُنْتَ تَشْتَهِي مِنَ الْمَاءِ بَارِدَهُ وَلَا مِنَ الطَّعَامِ

- (٤) الْحِجْرَةُ الْعَظْمَةُ .
(٥) الصَّحْفَةُ .
(٦) أَنَاءٌ صَغِيرٌ .

- (١) جَشَبَ الطَّعَامَ إِذَا غَلِظَ .
(٢) الْبَهْجَةُ وَالْحَسَنُ .
(٣) الدَّنُّ وَعَاءٌ كَالْبَرْمِيلِ كَبِيرٌ .

طيبه ولا من اللباس لينه بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما
أحق ما تركت وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت ، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل
وسعدت والله في الآجل . عزلت الشهرة عنك في حياتك لكي لا يدخلك عجبها ،
ولا يلحقك فتنها . فلما مت شرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك فلو رأيت
اليوم كثرة تبعك عرفت أن ربك قد أكرمك ^(١) .

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي .

بين السيِّدة زبيدة والمأمون

من السيدة زبيدة ^(١) :

كل ذنب يا أمير المؤمنين ! وإن عظم صغير في جنب عفوك ، وكل زلل وإن
جَلَّ حقير عند صفحك ، وذلك الذي عَوَّدك الله فأطال مدتك ، وتمم نعمتك ،
وأدام بك الخير ، ورفع بك الشر ،

هذه رقعة الواله ^(٢) التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات لجميل
الذكر ، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكأنتي وقلة حيلتي وإن تصل رحمي وتحسب
فيما جعلك الله له طالباً وفيه رغباً فافعل ، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي اليك .

من المأمون ^(٣) :

وصلت رقعتك يا أمّاه ! أحاطك الله وتولّاك بالرعاية ووقفت عليها وساءني -
شهد الله - جميع ما أوضحت فيها لكن الأقدار نافذة ، والأحكام جارية ، والأمور

(١) أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور العباسي وهي أم الأمين محمد بن الرشيد ،
المرأة الفاضلة العريضة في المجد والشرف صاحبة معروف وحسنات على المسلمين ، إليها
ينسب نهر زبيدة ، توفيت سنة ٢١٦ هـ ورسالتها هذه تعبر عن حزن عميق مع احترام لائق
لسدّة الخلافة ومعرفة دقيقة للأدب السلطانية وهي مثال بليغ للإنشاء والتعبير في مثل هذا
الموقف الحرج والمنازعة النفسية .

(٢) وله الرجل ولطأ حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله بابه ضرب وسمع .

(٣) هو أبو العباس عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفي سنة ٢١٨ هـ كان من
مفاخر بني العباس حزماً وعزماً وحليماً وجمعاً للفضائل المنتشرة وحماية للعلم إلا أن فيه تسرعاً
في الأحكام وقسوة في انفاذها وتشيعاً للمعتزلة فلاسفة ذلك العصر . وجوابه هذا جواب
مواساة وبر يجمع بين عزة الملوك وبر الأبناء وحلاوة التعزية وشيء من مرارة العتاب .

متصرفة . والمخلوقون في قبضتها لا يقدرّون على دفاعها ، والدنيا كلها إلى شتات ،
وكل حيٍّ إلى ممات . والغدر والبغي حتف الانسان . والمكر راجع إلى صاحبه .
وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ، ولم تفقدي من مضى إلى رحمة الله إلا وجهه وأنا
بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين والسلام^(١)

(١) عصر المؤمن .

بين قاضٍ وقور ، وزباب جور

للجاحظ (١)

كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار . لم ير الناس حاكماً زميناً (٢)
ركبناً (٣) ولا وقوراً حليماً . ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك .
كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي (٤)
ولا يتكى فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو . ولا يلتفت ولا يحل حيوته . ولا يحل
رجلاً على أخرى . ولا يعتمد على أحد شقيه . حتى كأنه بناء مبني . أو صخرة
منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال
كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر . ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم
لصلاة المغرب . ثم ربما عاد إلى مجلسه . بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه
شيء من قراءة العهد والشروط والوثائق . ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف .

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . ولد بالبصرة ونشأ بها . وتخرج في جميع الفنون السائرة
في عصره . وضرب فيها بسهم وافر . وصنف وألف . وجمع وكتب . وراسل وأنشأ . كان
ديم الخلق لطيف الروح . ذكي الفؤاد . فكه المحاضرة . معتزلي العقيدة . أما الكتابة فهو
فيها نابغة العرب وإمام الصناعة . صاحب أسلوب خاص . هو أبو عذرة . ويكاد يكون
خاتمه . تمتاز كتابته بسهولة العبارة وحزالتها وتقطع الجملة إلى فقرات كثيرة مفقاة أو
مرسلة . وزيادة الاطناب في الألفاظ والجميل . والاستطراد ومزج الجد والهزل . وتحكيم
العقل والمنطق ، والاعتراض بالجميل الدعائية . وبعد ذلك كله تصوير المجتمع الذي يعيش
الكاتب فيه وبيان أخلاق عصره وعوائدهم . ومن كتبه الشهيرة كتاب « البيان والتبيين »
وكتاب « البخلاء » وكتاب « الحيوان » و « ديوان رسائل » . توفي سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) الزميت . الجليل الوقور .

(٣) الركبن . الثابت الوقور الرزين .

(٤) احتبى الرجل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب .

كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها . وفي صيقها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ولا يشير برأسه ، وليس ألا أن يتكلم ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكبيرة .

فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السماطين^(١) بين يديه ، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث . ثم تحول إلى موق^(٢) عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق . وصبر على عضته ونفاذ خرطوميه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته^(٣) أو يغضن^(٤) وجهه ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب . وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التقاتل . أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض . فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الاطباق والفتح . ففتح ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى . فغمس خرطوميه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتمالاً أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، ففتح عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صيره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ففتح عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه . بطرف كفه . ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حصره من أمثاله وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء^(٥) وأرهى^(٦) من الغراب ، قال : وأستغفر الله فما أكثر من أعجبتة نفسه فأراد الله عز

(١) الصفيين.

(٢) اللوق . مجرى الدمع من العين .

(٣) الأرنبة . طرف الأنف .

(٤) عضن الشيء . جمعه وشنجه .

(٥) دوية سوداء أصغر من الجعل ، كريهة

الرائحة .

(٦) أكثر تكبراً . وأكثر تحركاً .

وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم اني عند نفسي وعند الناس
من أوزن الناس ، فقد غلبني وفضحتني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : « وان
يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .
وكان بين اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد
من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمثالة ^(١) .

(١) منقول من كتاب « كنوز الأجداد » لمحمد كرد علي .

القميصُ الأحمر

لابن عبد ربه (١)

بينما المنصور في الطواف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم ! اني أشكو
إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع .
فجزع المنصور فجلس بناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل فصلى ركعتين واستلم (٢)
الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة . فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر
من ظهور الفساد والبغي في الأرض ؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟
فوالله لقد حشوت (٣) مسامعي ما أمرضني . فقال : ان أمتنتني يا أمير المؤمنين !
أعلمتك بالأمر من أصولها والا احتجرت (٤) منك واقتصرت على نفسي فلي فيها
شاغل . قال : فأنت آمن على نفسك فقل . فقال : يا أمير المؤمنين ! ان الذي دخله
الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت . فقال :
فكيف ذلك ؟ ويحك يدخلني الطمع والصفراء (٥) والبيضاء في قبضتي والحلو
والحامض عندي ؟

قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ، ان الله استرعاك (٦) أمر عباده
وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً
من الجص والآجر وأبواباً من الحديد ، وحرّاساً معهم السلاح ، ثم سحنت نفسك

- | | | | |
|-----|---|-----|--------------------------------|
| (١) | ٢٤٦-٣٢٨ هـ هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي من كبار | (٢) | أي مسح بالكف وقبّل . |
| (٣) | ملأت . | (٣) | أي انزلت عنك أو حبست ما عندك . |
| (٤) | كتاب الأندلس والمؤلفين العرب وكتابه العقد الفريد - والقميص الأحمر مأخوذ | (٤) | عنك . |
| (٥) | منه - من كتب التاريخ والأدب | (٥) | أي الذهب والفضة . |
| (٦) | الجليلة المستعة تجمع علماً كثيراً . | (٦) | أي جعلك راعياً . |

عنهم فيها ، وبعث عُمَّالَكَ في جبايات الأموال وجمعها ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلانٌ وفلانٌ نفرأَسْمَيْتَهُمْ . ولم تأمر بايصال المظلوم . ولا الملهوف ^(١) ولا الجائع العاري اليك . ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حق .

فلما رآكَ هؤلاء النقر الذين استخلصتهم لنفسك . وآثرتهم على رعيَّتِكَ . وأمرت أن لا يُحْجَبُوا دونكَ تَجِيّ الأموال وتجمعها ، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه . فاتمروا ^(٢) أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا . ولا يخرج لك عامل الا خَوْنُوهُ عندكَ ونفوه حتى تسقط منزلته عندكَ .

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظَمَهُم الناس . وهابوهم وصانعوهم ^(٣) . فكان أول من صانعوهم عُمَّالُكَ بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيَّتِكَ . ثم فعل ذلك ذو المقدرة والثروة من رعيَّتِكَ لينالوا ظلم من دونهم . فامتألت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً . وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانتك وأنت غافل . فان جاء متظلمٌ ^(٤) حيل بينك وبينه فان أراد رفع قصَّته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم .

فان جاء ذلك المتظلمٌ فبلغ بطانتك ^(٥) خبره ، سألوها صاحب المظالم أن لا يرفع مظلُمته اليك . فلا يزال المظلوم يختلِف اليه ، ويلوذ ^(٦) به ، ويشكو ويستغيث . وهو يدفعه . فإذا أجهَد وأُخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ^(٧) . يكون نكالاً ^(٨) لغيره وانت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الاسلام ؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين ! أسافر إلى الصين فقدمتها مرّة وقد أصيب منكهم بسمعه فبكي يوماً بكاءً شديداً فحثه جلساؤه على الصبر فقال : أما اني لست أبكي للبلية النازلة ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته . ثم قال : أما إذا

- | | | | |
|-----|--|-----|---|
| (١) | الحزين ذهب له مال أو فجع بحميم المظلوم ينادي ويستغيث . | (٥) | بطانة الرجل أهله وخاصته ج بطائن . |
| (٢) | تشاوروا . | (٦) | لاذ بالقوم التجأ إليهم وداناهم وعاد بهم . |
| (٣) | رشوا . | (٧) | الشديد . |
| (٤) | أي الشاكي من الظلم . | (٨) | العبرة . |

قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب . نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً .

فهذا يا أمير المؤمنين ! مشرك بالله بلغت رافته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك . فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال . وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس له ولست الذي تعطي بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء .

فان قلت : إنما تجمع المال لشدة يد السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع^(١) حين أراد الله بهم ما أراد .

وان قلت : إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه . يا أمير المؤمنين ! هل يعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ فقال المنصور : لا . فقال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك^(٢) ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم . قد رأى ما عقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك^(٣) ، ونظر اليه بصرك ، واجترحته^(٤) يدك ، ومشت اليه رجلاك ، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك إلى الحساب ؟

قال : فبكي المنصور ثم قال : ليتني لم أخلق ويحك كيف أحتال لنفسي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! ان للناس أعلاماً^(٥) يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم في دنياهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك . وشاورهم في أمرك يسدّدوك^(٦) . قال : قد بعثت اليهم فهربوا مني . قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ولكن افتح

(١) بضم الكاف اسم يطلق على الخيل . ولا سيما اليد .

(٢) والبغال والحمير . (٤) اكتسبته .

(٣) جمع جازحة أي العضو من الإنسان . (٥) جمع علم أي سيد القوم .

(٦) يرشدوك إلى الصواب .

بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع^(١) الظالم ، وخذ القمى والصدقات
على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك
على صلاح الأمة وجاء المؤذنون فأذنوه بالصلاة فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل
فلم يوجد^(٢)

(١) قمعه كفتح قمعاً صرفه عما يريد وقهره وذلكه .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه .

كيف كان معاوية رضي الله عنه يقضي يومه^(١)

للمسعودي^(٢)

كان من أخلاق معاوية انه كان يأذن في اليوم واللييلة خمس مرات ، كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه . ثم يدخل فيؤتي بمصحفه فيقرأ جزأه . ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلي أربع ركعات ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي . ثم يؤتي بالغداء الأصغر وهو فضلة^(٣) عشاء من جدي^(٤) بارد أو فرخ وما يشبهه ثم يتحدث طويلاً . ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول : يا غلام ! أخرج الكرسي فيخرج إلى المسجد فيوضع فيسند ظهره إلى المقصورة^(٥) ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيتقدم إليه الضعيف والاعراي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول : أعزوه^(٦) ويقول : عُدِّي عليَّ فيقول : ابعثوا معه ويقول : صنِّع بي فيقول : أنظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير . ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد

(١) معاوية بن أبي سفيان من اصحاب رسول الله صلی الله علیه و آله وكتاب الوحي ، مؤسس الدولة الأموية ومن نوابغ السياسين الذين أنجبتهم أرض الجزيرة كان عمر رضي الله عنه ينظر إليه ويقول هذا كسرى العرب . كان جواداً وقوراً يضرب بحمله المثل ، كان أحد كبار ملوك العالم في عصره لعشرين سنة ، توفي سنة ٦٠ هـ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ الشهير . نشأ في بغداد وساح البلاد إلى الهند والصين ومداغسكر . توفي سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ .

(٣) الفضلة بفتح الفاء ، البقية من الشيء .

(٤) ولد المعز في السنة الأولى .

(٥) أصغر من الدار ولا يدخلها إلا صاحبها ومقصورة المسجد مقام الإمام .

(٦) أعزّه جعله عزيزاً .

السلام . فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؟ فيقول : بنعمة من الله . فإذا استوا جلوساً قال : يا هؤلاء إنما سُميتُم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس . ارفعوا الينا حوائج من لا يصل اليها . فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان فيقول : افرضوا لولده^(١) ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله . فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم .

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً . والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر فيقال : يا عبد الله أعقب^(٢) فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيروا^(٣) فينصرفون فيدخل منزله فلا يضع فيه طامع . حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلّي أربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج^(٤) من الأخبصة^(٥) اليابسة والخشكنانج^(٦) والأقراص المعجونة باللبين والسكر من دقيق السميد^(٧) والكحك^(٨) المنضد^(٩) والفواكه اليابسة . وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة . ويدخل إليه ووزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ويجلس إلى العصر ثم يخرج فيصلّي العصر ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع ، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فيجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج . ثم يرفع العشاء فينادى بالمغرب فيخرج فيصلّيها . ثم يصلي بعدها أربع ركعات ويقرأ

- | | |
|--|---|
| (١) فرض له في الديوان أي رسم له فيه شيئاً معلوماً وأثبت رزقه فيه . | (٦) معرب لعله خشك نان . |
| (٢) عَقَبَ . وأعقب فلان فلاناً ومكان فلان | (٧) الدقيق الأبيض . |
| خَلَقَهُ وجاء بعده | (٨) خبز يعمل مستديراً من الدقيق والحليب والسكر أو غير ذلك والكلمة من المشيل . |
| (٣) أجاز الموضع خَلَقَهُ وقطعه . | (٩) المضموم بعضه إلى بعض . |
| (٤) نوع من الأطعمة . | |
| (٥) جمع خبيص وهو الحلوى . | |

في كل ركعة خمسين آية . يجهر تارة ويخافت أخرى . ثم يدخل مترله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلّي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أراد وأصدر من ليلتهم ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها وسياستها لرعيها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ثم تأتيه الطرف^(١) القرية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلّي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم^(٢) .

(١) الهدايا القرية .

(٢) مروج الذهب للمسعودي .

استقامة الإمام أحمد بن حنبل ^(١) وكرمه

لابن حبان البستي ^(٢)

حكى ابن حبان البستي عن اسحاق بن أحمد القطان البغدادي بستر .
قال : كان لنا جار ببغداد كنا نسمة طيب القراء . كان يتفقد الصالحين

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الإمام أبو عبد الله الشيباني الذهلي . إمام المسلمين ومن حبه والدفاع عنه شعار أهل الدين . ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ . ونشأ على الصبر والقناعة . وحفظ القرآن في صباه . واتجه إلى الحديث اتجاه كلياً . ورحل إلى بلاد كثيرة ، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي . وأخذ عنه الفقه وأصوله . ولقيه بعد ذلك ببغداد . وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية . حتى بلغ مبلغ الإمامة ، ورتبة الاجتهاد . فكان يحفظ ألف ألف حديث . وجلس للتدريس والفتيا . وكان اقبال الناس على مجالسه عظيماً ، وتخرج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري . ومسلم . وأبو داود .

وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل . والورع . والتواضع . والعزوف عن أموال السلطان ، ومكارم الأخلاق . امتحن في الله . وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنه الاعتزال أيام المعتصم . وعذب ما لم يعذب إلا أفراد قلائل ، فصبر صبر الأبطال . وثبت ثبات الجبال . ثم امتحن بالصلوات والعطايا . والإجلال والتكريم أيام المتوكل . فاستقام استقامة الربانيين ، والمتوكلين الزاهدين ، وانتصر للسنة . وذاد عن الإسلام . حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره : « إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » وقال قتبية : « إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة » .

كانت وفاته سنة ٢٤٢ هـ ، وصلى عليه جمع كثير . قال عبد الوهاب الوثاق ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله ، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده .

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، هو عربي الأصل ، نشأ في بستان - مدينة بين سجستان وغزني وهراة - وكان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ . كتب عن ألف شيخ ، ولي القضاء بسمرقند ، ثم بسا ، قتلته الخليفة بتهمة أنهم بها وهو في الثمانين =

وبتعاهدهم ، فقال لي : دخلت يوماً على أحمد بن حنبل فاذا هو مغسوم مكروب ، فقلت : مالك يا أبا عبد الله ؟ قال : خير ! قلت : ومع الخير ؟ قال : امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت ، ألا أنه بقي في صليبي موضع يوجعني ، هو أشد عليّ من ذلك الضرب ، قال : قلت اكشف لي عن صلبك ، فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت : ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخير عن هذا . قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس في حاجة قال : أدخل ، فدخلت وجمعت فتياهم . وكان معي دريهمات فرقها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي . ثم قلت : من منكم ضرب أكثر ؟ . قال : فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً وأشدّهم صبراً ، قال : فقلت له : أسألك عن شيء ، قال : هات ، فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، وضرب على الجوع للقتل سباطاً يسيرة ، ألا أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، ألا ان موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر . قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟ ، قال الذي عالجه كان حائكاً . قلت : أيش الخبر ؟ ، قال : ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها ، قلت : فما الحيلة ؟ قال : يبط^(١) صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها . وان تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال : فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة ، قال : ومن يبطه ؟ ، قلت أنا . قال : أو تفعل ؟ ، قلت : نعم ، قال فقام ودخل البيت ثم خرج وبه

= من عمره . وقيل مات حتف أنفه سنة ٣٥٤ هـ . وكان عالماً بالمتون والأسانيد ، وكان وعاء من أوعية العلم في اللغة والفقه ، والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، طبع من كتبه « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » وهذا الفضل مأخوذ منه ، والقصة كما تدل على استقامة الإمام أحمد بن حنبل وصبره ، وكرم خلقه ، وحبه لرسول الله ﷺ وقرابته ، أنموذج لطريف للغة العربية الفصحى ، والتعبير البليغ الذي كان منتشرأ في القرن الثالث الهجري في بغداد قبل أن يفسده التكلف والمعجمة .

(١) ببط يبط بظاً . الجرح شقه .

مخدّتان وعلى كتفه فوطه^(١) . فوضع احدهما لي والأخرى له ، ثم قعد عليها وقال :
استخر الله فكشفت الفوطه عن صلبه وقلت : أرني موضع الوجع ، قال : ضع اصبعك
عليه فاني أخبرك به . فوضعت اصبعي وقلت : ههنا موضع الوجع ؟ قال : ههنا
أحمد الله على العافية . فقلت . ههنا قال . ههنا أحمد الله على العافية . فقلت
ههنا ؟ قال ههنا أسأل الله العافية . قال فعلمت انه موضع الوجع قال : فوضعت
المبضع^(٢) عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول :
اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بططته ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت
العصابة^(٣) عليه . وهو لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم ، قال : ثم هدأ
وسكن ثم قال : كأني كنت معلقاً فأحدرت ، قلت ، يا أبا عبد الله ان الناس
إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم ، قال اني فكرت فيما
تقول ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فكرهت آتي يوم القيامة وبيني أحد من
قربته خصومة . وهو مني في حل .

(١) الفوطه ، ما يأتزر به الخدم ج فوط ، وعند العامة : هي قطعة تنشف بها الأيدي ، وتسمى
أيضاً المنشفة .

(٢) المبضع : ج مباضع . وهو آلة يشق بها الجلد ، وما شاكله .

(٣) العصابة : ما عصب به من منديل ونحوه ، ج عصاب .

أشعب وأبجیل

لأبي الفرج الاصبهاني (١)

حدث أشعب (٢) قال : ولي المدينة رجل من ولد عامر بن لؤي وكان أبجل الناس وأنكدهم (٣) . وأغراه الله في يطلبني في ليله ونهاره . فان هربت منه هجم على منزلي بالشرط (٤) وان كنت في موضع بعث إلى من أكون معه أو عنده يطلبني منه فيطالبني بأن أحدثه وأضحكه . ثم لا أسكت . ولا أنام ولا يطعمني ولا يعطيني شيئاً . فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً شديداً . وحضر الحج فقال لي : يا أشعب كن معي . فقلت بأبي أنت وأمي أنا عليل وليست لي نية في الحج . فقال : عليه وعليه : وقال : ان الكعبة بيت النار لئن لم تخرج معي لاودعنك الحبس حتى أقدم . فخرجت معه مكرهاً . فلما ترلنا منزلاً أظهر انه صائم ونام حتى تشاغل . ثم أكل ما في سفرته

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الشيعي العلامة الكاتب صاحب كتاب الأغاني ، كان اخبارياً نساباً شاعراً . وكتاب الأغاني ذخيرة من ذخائر الأدب العربي ، ولولاه لضعف أدب وافر ولأصبحت نواح اللغة العربية جميلة مطوية على غرها ولحرمت تلك اللغة العذبة التي كان يتكلم بها أهل اللغة في منازلهم وعلى موائدهم وفي مواضع انبساطهم ، والكتاب على ما فيه من متعة أدبية . وثروة لغوية . تصوير قائم للمجتمع الإسلامي في القرون المشهود لها بالخير . كأن لم يكن فيه إلا اللهو والمجون . والتمتع بالحياة ، قد يشكك في حسن نية صاحبه وسلامة عقيدته . توفي سنة ٣٥٦ هـ ببغداد .

(٢) هو ابن الزبير واسمه شعيب وكنيته أبو العلاء . وُلد سنة تسع من الهجرة ونشأ بالمدينة وكان من القراء حسن الصوت وكان مليحاً صاحب نوادر ، وكان شديد الطمع كثير الطلب يضرب به المثل ، وله نوادر وحكايات .

(٣) الكد . المشؤم العسر .

(٤) جمع شرطي (بضم الشين وسكون الراء) طائفة من أعوان الولاة وهم في أيامنا رؤساء الضابطة (البوليس) .

وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح . فجئت وعندني انه صائم ولم أزل انتظر المغرب أتوقع افطاره . فلما ضلّيت المغرب قلت لغلامه : ما يُنتظر بالأكل ؟ قال : قد أكل منذ زمان . قلت : أو لم يكن صائماً ؟ قال : لا . قلت : أفأطوي^(١) أنا ؟ قال : قد أعدّ لك ما تأكله فكل . وأخرج إليّ الرغيفين والملح . فأكلتهما وبت ميتاً جوعاً . وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل فقال لغلامه : اتبع لنا لحماً بدرهم . فابتاعه فقال : كُبّ لي قطعاً . ففعل . فأكله ونصب القدر . فلما نغرت^(٢) قال : اغرف لي منها قطعاً . ففعل . فأكلها ثم قال : اطرح فيها دقّة^(٣) وأطعمني منها . ففعل . ثم قال : الق توابلها^(٤) وأطعمني منها . ففعل وأنا جالس أنظر اليه لا يدعوني . فلما استوفي اللحم كله قال : يا غلام أطعم أشعب . ورمى إليّ برغيفين فجئت إلى القدر وإذا ليس فيها إلا مرق وعظام . فأكلت الرغيفين . وأخرج له جراباً فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة^(٥) فأكلها وبقي في كفه كف لوز بقشره ولم يكن له فيه حيلة . فرمى به إليّ وقال : كل هذا يا أشعب . فذهبت أكسر واحدة منها فإذا بضرسي قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يدي . وتباعدت أطلب حجراً أكسر به فوجدته فضربت به لوزة ففطرت^(٦) . يعلم الله مقدار رمية حجر . وعدوت في طلبها . فبينما أنا في ذلك إذ أقبل بنو مصعب (يعني ابن ثابت واخوته) يلبّون بتلك الحلق الجهورية^(٧) . فصاحت بهم . الغوث الغوث العياذ بالله وبكم يا آل الزبير الحقوني ادركوني . فركضوا إليّ فلما رأوني قالوا : أشعب ما لك ويلك ؟ قلت : خذوني معكم مخلصوني من الموت . فحملوني معهم فجعلت أرفرف^(٨) بيدي كما يفعل الفرخ إذا طلبه الزق^(٩) من أبويه . فقالوا : ما لك ويلك ؟ قلت : ليس هذا وقت الحديث

- | | |
|--|--------------------------------------|
| (١) طوى جاع ولم يأكل شيئاً . بابہ سمع . | وأما لهما . |
| (٢) نغرت فارت . بابہ ضرب وسمع وفتح . | (٥) ملء الكفّين . |
| (٣) الملح المبرّر وهو ما خلط بالملح من الابرار . | (٦) وثبت بابہ ضرب . |
| (٤) جمع نابل أي ما يطيب به من الغذاء | (٧) المرتفعة العالية . |
| (٥) من الأشياء اليابسة كالفلفل والكمّون | (٨) رفرِف الطائر بسط جناحيه وحرّكهما |
| | (٩) ما يطعم الطائر فرخه بمنقاره . |

زُقُونِي^(١) مما معكم قد مت ضراً وجوعاً منذ ثلاث . (قال) فأطعموني حتى تراجع
نفسي وحملوني معهم في محمل ثم قالوا : أخبرنا بقصتك . فحدثتهم وأريتهم ضرسي
المكسورة فجعلوا يضحكون ويصنِّقون وقالوا : ويلك من أين وقعت على هذا ؟ هذا
من أبخل خلق الله وأدثهم نفساً . فحلفت بالطلاق أني لا أدخل المدينة ما دام له بها
سلطان فلم أدخلها حتى عُزل .

(١) زَقَّ الطائر فرخه أطعمه بمنقاره أي أسعفوني بشيء يسد رمقي

رسالة عتاب

لأبي بكر الخوارزمي

كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء ، وبروز البدر من
الظلماء ، وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشاق اليه ، وودعتني وهي مودع لا
يبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجليها ، ونعمة ينيلها ^(٢) ويوليها ^(٣) .
كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسلية ، واليوم بالتهنئة ، فلم يكاتبني في
أيام البرحاء ^(٤) بأنها غمته ، ولا في أيام الرخاء ^(٥) بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه
إلى نفسي وجادلت عنه قلبي فقلت : -
أما اخلااله ^(٦) بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأما تغافله عن

(١) ٣٢٣-٣٨٣ هـ هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أصله من طبرستان ووُلِدَ بخوارزم
ونشأ بها ، كان من المتكسبين بالأدب ، الذين هاجروا وجاهدوا في سبيله ، اتصل بسيف
الدولة والصاحب بن عباد وعضد الدولة . كان بحراً في الأدب راوية لأشعار العرب
وأخبارها وأيامها نسبة لغويّاً واقفاً على مناهج كلام العرب وخواص تراكيب اللغة .
ولكنه من طائفة الأدباء بالجبر الذين امتلكوا ناصية البيان وتصرفوا في ضروب الكلام
بكثرة ما حفظوا وبطول ما مارسوا ، بغير قلم سيال ، وبيان سلسال ، وطبع ريان وذوق
رقيق ، ورسائله شاهدة بذلك ، ولذلك أخفق في مساجلة بديع الزمان الهمذاني وهو
الأديب بالطبع اخفاقاً عظيماً وكان ذلك سبب موته ، وشعره أحسن من نثره مع أنه لم
يشتهر إلا برسائله السائرة الطائفة في الآفاق .

(٢) يعطيها .

(٣) أولاه معروفاً أي صنعه .

(٤) الشدة والأذى .

(٥) بالفتح سعة العيش .

(٦) أحل بالشيء قصر فيه . تركه ولم يأت به .

الأخرى فلأنه أحب أن يوفر^(١) عليَّ مرتبة السابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليَّ ، ومحفوظة^(٢) من كل رتبة بي .

فان كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان ، وليكتب لي بالاستحسان ، وان كنت أسأت فليخبرني بعذره فانه أعرف مني بسرّه ، وليرض مني بأنني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي وقلت : يا نفس ! اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك فمع اليوم غد والعود أحمد^(٣) .

(١) يكثر ..

(٢) حقه كنصر وضرب حقاً بكذا أحاطه به .

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي .

حديث الناس

لأبي حيان التوحيدي^(١)

حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال : كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة وتبليت^(٢) دولة آل سامان بالجور وطول المدة فلجأ محمد بن ابراهيم صاحب الجيش إلى قايين وهي حصنه ومقله وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة وعدة عميمة وزينة فاخرة وهيئة باهرة وغلا السعر وأخيفت السبل وكثر الارجاف وساءت الظنون وضجت العامة والتبس الرأي وانقطع الأمل ونجح كل كلب من كل زاوية وزار كل أسد من كل أجمة وضح^(٣) كل ثعلب من كل تلة^(٤) .

(١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، وُلد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع ونشأ في بغداد ، وجاء مفتناً في العلوم في النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة . كان مقتراً عليه في الرزق ، وكان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة ، ولم يزل في ضيق وجفاء من المعاصرين حتى أحرق كتبه في آخر عمره لقلّة جدواها بزعمه وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته . قال الأستاذ كرد علي « كتب أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات . وتقريع وتقريظ . ونقد ولمز ووعظ وإرشاد وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم أنزلته منازل أعظم المنشئين والمؤلفين صور فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة .. انشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل في ما يكتب ، ولا عني بالتنميق والتجسير . والصقل والتطرية ... كأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت لموت الجاحظ ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول وضروب المعارف » . ومن أشهر كتبه كتاب الصداقة والصدق ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الامتاع والموانسة وكتاب البصائر والذخائر ، ومثالب الوزراء . مات بشيراز سنة ٤١٤ هـ .

(٢) فسدت وهاجت .

(٣) صوّت الثعلب وصاح .

(٤) ما علا من الأرض .

قال وكنا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرحها فتارة نقرأ وتارة نصلي وتارة ننام وتارة نهذي والجوع يعمل عمله ونحوض في حديث آل سامان والوارد من جهتهم إلى هذا المكان ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق وتخطف الناس للناس وشمول الخوف وغلبة الرعب وكان البلد يتقد ناراً بالسؤال والتعرف والارجاف بالصدق والكذب وما يقال بالهوى والعصية فضاقت صدورنا وخبت سرائرنا واستولى علينا الوسواس . وقلنا ليلة ما ترون يا صحابنا ما دفعنا اليه من هذه الاحوال الكريهة ، كأننا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع نخاف عليها الغارة والنهب وما علينا من ولاية زيد وعزل عمرو وهلاك بكر ونجاة بشر نحن قوم رضىنا في هذه الدنيا العسيرة وهذه الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلایا طلاب الدنيا . فما هذا الذي يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل ولا حظ ولا أمل قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه ساكنين معه مقتدين به فاتفق رأينا على ذلك . فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد فلما دخلنا رحب بنا وفرح بزيارتنا وقال : ما أشوقني اليكم وما ألهفني عليكم ! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقام واحد حدثوني ما الذي سمعتم وماذا بلغكم من حديث الناس وأمر هؤلاء السلاطين ؟ فرجوا عني وقولوا لي ما عندكم فلا تكتُموني شيئاً فما لي والله مرعى في هذه الأيام الا ما اتصل بحديثهم واقرن بخبرهم ، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد دهشنا واستوحشنا وقلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا ، وبأي شيء علقنا وبأي داهية دُهينا قال : فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا : أرأيتم ما بلينا به وما وقعنا عليه ؟ (ان هذا هو البلاء المبين) . ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته ^(١) حتى نقيم عنده إلى آخر النهار فقد بنا المكان الأول ، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنا فأذن لنا ووصلنا اليه فسرَّ بحضورنا ، وهشَّ لرؤيتنا وابتهج بقصدنا وأعظم زيارتنا ، ثم

(١) جبل أو مكان مرتفع يسكنه المتعبد قصد الإنفراد .

قال : يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس ؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه ولم يدخل علي اليوم أحد فأستخبره وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة فهاتوا ما عندكم وما معكم وقصوا علي القصة بفصها ^(١) ونصها ودعوا التورية والكناية واذكروا الغث والسمين فإن الحديث هكذا يطيب ولولا العظم ما طاب اللحم ولولا النوى ما حلا التمر ولولا القشر لم يوجد اللب ، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا بالزاهد الأول وخاطفناه الحديث وودعناه وخرجنا ، وأقبل بعضنا على بعض يقول : رأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا ؟ أنظروا من أي شيء كان تعريجنا ^(٢) (إن هذا لشيء عجيب) وتلدنا ^(٣) وتبلدنا ^(٤) . وقلنا يا أصحابنا : انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير وإن كان مضربه ^(٥) بعيداً فانا لا نجد سكوتنا إلا معه ولا يفتخر بضالتنا إلا عنده لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته ^(٦) في بصره وورعه وقلة فكره في الدنيا وأهلها وطوبى الأرض اليه ودخلنا عليه وجلسنا حواله في مسجده ولما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به ويدعو له ويقرب فلما انتهى أقبل علينا وقال : أمن السماء نزلتم علي ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي وأحرزت غاية سؤلي قولوا لي غير محتشمين ^(٧) : ما عندكم من أحاديث الناس ؟ وما عزم عليه هذا الوارد ؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين وما الشائع من الأخبار ؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس ؟ وما يقع في هواجسكم ^(٨) ويستبق إلى نفوسكم ؟ فإنكم بُرد الآفاق وجواله الأرض ولقطة الكلام . ويتساقط اليكم من الأقطار ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس : فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني ، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعهده في طبقة فوق طبقات جميع الناس فخففنا الحديث معه وودعناه وخنسنا ^(٩) من عنده وطفقنا

- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) أصل الأمر وحقيقته . | (٦) الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء . |
| (٢) عرج وقف ولبث . | (٧) احتشم ، انقبض أو استحيا . |
| (٣) نحيرنا . | (٨) خواطرهم . |
| (٤) تبلد أصبح بليداً أو تظاهر بالبلادة . | (٩) تأخرنا . |
| (٥) بيته . | |

يوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم .. وازدريناهم ^(١) .
 .انقلب متوجهين إلى دويرتنا التي غدونا منها مستطرقين ^(٢) كالآين ^(٣) فلقينا في
 الطريق شيخاً من الحكماء يقال له أبو الحسن العامري وله كتاب في التصوف قد
 شحنه بعلمنا وشارتنا وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطلعوا على أسرار الله
 في العباد فقال لنا : من أين درجتم ^(٤) ومن قصدتم ؟ فأجلسناه في مسجد وعصبنا ^(٥)
 حوله وقضينا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها ولم نحذف منها حرفاً فقال لنا في طيِّ
 هذه الحال الطارئة غيب لا تقفون عليه وسر لا تهتدون اليه وإنما غركم ظنكم بالزهاد
 وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة ، لأنهم الخاصة ومن الخاصة
 خاصة الخاصة لأنهم بالله يلوذون وإياه يعبدون وعليه يتوكلون واليه يرجعون ومن
 أجله يتهالكون وبه يتمالكون قلنا له : فان رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا
 الغطاء وترفع هذا السر وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب لنكون شاكرين
 وتكون من المشكورين ، فقال : نعم أما العامة ، فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها .
 لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور ^(٦) المنافع واتصال الجلب
 ونفاق السوق وتضاعف الربح . فأما هذه الطائفة العارفة بالله العاملة لله فانها مولعة
 أيضاً بحديث الأمراء والجبابرة العظماء لتقف على تصاريق قدرة الله فيهم وجريان
 أحكامه عليهم ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم والانتقام
 منهم ألا ترونه قال جل ثناؤه : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم
 مبلسون ^(٧)) . وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته ويطلعون على تتابع نعمته
 وغرائب نقمته وههنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل وكل نعيم غير نعيم
 الجنة حائل ^(٨) ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم في الضرع إلى الله واللياذ بالله والخشوع

- | | | | |
|-----|---------------------------------|-----|------------------------------------|
| (١) | احتقرناهم . | (٦) | سيلاتها وكثرتها . |
| (٢) | استطرق الشيء اتخذه طريقاً . | (٧) | ألبس انكسر وحزن ويش من رحمة الله . |
| (٣) | متعبين . | (٨) | حائل أي متغير . |
| (٤) | درج متى . | | |
| (٥) | عصب القوم به اجتمعوا وأحاطوا به | | |

لله والتوكل على الله وينبغثون به من حران ^(١) الالباء إلى انقياد الاجابة وينتبهون من رقدة الغفلة ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة ويجدون في أخذ العتاد واكتساب الزاد إلى المعاد ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره المحفوف بالرزايا الذي لم يفلح فيه أحد إلا بعد أن هدمه وثلمه ^(٢) وهرب منه ورحل عنه إلى محل لا داء فيه ولا غائلة ، ساكنه خالد ومقيمه مطمئن والفائز به منعم والواصل اليه مكرم وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه اليه وفتح باب السر فيه عليه وقد يتشابه الرجلان في فعل . وأحدهما مذموم والآخر محمود وقد رأينا مصلياً إلى القبلة وقلبه في طر ^(٣) ما في كم الآخر فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه فان الباطن إذا واطأ الظاهر كان توحداً وإذا خالفه إلى الحق كان وحدة وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالة وهذه المقامات مرتبة لأصحابها وموقوفة على أربابها ليس لغير أهلها فيها نفس ولا لغير مستحقها منها قبس .

قال الشيخ الصوفي : فوالله ما زال ذلك الحكم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها ويملاً صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على بأس منا فائدة عظيمة لو تمنينا بالغرم الثقيل والسعي الطويل لكان الربح معنا والزيادة في أيدينا ^(٤) .

(١) حرن بالمكان لم يبرح منه .

(٢) أحدث فيه خللاً .

(٣) الطر الشق والقطع والمراد السرقة والطارون الذين يسرقون ما في جيوب الناس .

(٤) الامتاع والموانسة .

في سبيل السَّعادة واليقين

للامام الغزالي ^(١) رحمه الله عليه

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجاني ^(٢) عن دار الغرور . والانابة إلى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعلاقات .

ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس ^(٣) في العلاقات وقد أهدت ^(٤) بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أنني على شفا ^(٥) جُرُف ^(٦) هار ^(٧) وأني قد اشفيت على النار ان لم أشتغل بتلافي

وأسلوب الغزالي أسلوب طبعي قوي يتدفق بالحياة ، توفي سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) التباعد .

(٣) داخل .

(٤) أحاطت .

(٥) حرف كل شيء وحده .

(٦) بضمين ج جرقة وبسكون الراء ج أجرف الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر .

(٧) هار يهور هورا البناء انهدم فهو هائر ويقال أيضاً هار على القلب كما في شاكي السلاح .

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي . من أئمة المسلمين وأعلام العلم والدين . وُلد سنة ٤٥٠ هـ وقرأ على علماء بلده وعلى إمام الحرمين وتخرج في مدة قريبة ، ووصل إلى أقصى ما يصل إليه عالم من المجد والسمو وانتهت إليه الرئاسة العلمية في بغداد ثم اعتزل التدريس وخرج في طلب السعادة واليقين حتى نالهما ثم عكف على العبادة والتربية وإفادة المسلمين ، من أشهر كتبه إحياء علوم الدين ،

الأحوال . فلم أزل أفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمّ العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومناادي الايمان ينادي الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخيل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد . وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة واياك ان تطاوعها فانها سريعة الزوال ، وان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ^(١) والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل ^(٢) عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب مختلفة ، وكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراء ^(٣) الطعام والشراب ، فكان لا ينساع لي شربة ولا تهضم لي لقمة وتعدني إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم عن العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزتي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أورّي ^(٤)

(١) مرادف للتكدير .

(٣) أي الهناء .

(٢) اعتقل لسانه أي حبس عن الكلام .

(٤) أي أريده وأظهر غيره .

في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطلع الخليفة وجملته الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً ، واستهدفت ^(١) لائمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك ^(٢) الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة واما من قرب من الولاة فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ واعراضني عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي وليس له سبب الا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم .

ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ولم أذكر إلا قدر الكفاف ^(٣) وقوت الأطفال ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه . ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلة والرياضة والمجاهدة اشتغالياً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصّلت من علم الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي . ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسيرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير في وجه المراد .

(١) أي صرت غرضاً يرمي عليّ بالأقويل .

(٢) اضطرب .

(٣) ما كفى عن الناس وأغنى .

وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها .
ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن أحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره ليستفيع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وإن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء .
وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ^(١) .

(١) المتقدم الضلال للغزالي .

وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي^(١)

للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد^(٢)

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلاً عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل^(٣) . ودخل ولده الملك الأفضل^(٤) وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل . وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، ولم يكن القاضي

(١) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب بالملك الناصر ، الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين وبيّض وجوههم وردّ غارة الصليبيين واستردّ بيت المقدس بعدما بقي في أيدي النصارى تسعين سنة وخلّص مصر من دولة العبيديين الملاحدة إلى غير ذلك من المفاخر والمآثر التي قلما اتفقت لغيره بعد عصر الراشدين ، وُلِدَ سنة ٥٣٧ هـ ومات اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ، أقرأ ترجمته مفصّلة في وفيات الأعيان لابن خلكان ،

(٢) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع ، وُلِدَ بالموصل سنة ٥٣٩ هـ واتفق علوم الحديث والتفسير والأدب . كان من ندماء السلطان صلاح الدين وخواصه سمع السلطان منه الحديث وولّاه قضاء العسكر والحكم بالقدس ، ثم اتصل بعد وفاة السلطان بخدمة الملك الظاهر وحلّ عنده في رتبة الوزارة ، وكان السبب في قيام كثير من المدارس بحلب ، ألّف في سيرة السلطان صلاح الدين كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو خير مرجع في أحوال السلطان وسيره وأخلاقه ، في عبارة منسجمة نفّية ، توفي في صفر سنة ٦٣٧ هـ .

(٣) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني ، كان وزيراً لصلاح الدين ومدير ملكه وصاحب سرّه ، توفي سنة ٥٩٦ هـ .

(٤) هو الملك الأفضل نور الدين علي ، أكبر أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها بعد وفاة أبيه .

عادته ذلك . فانصرف ودخلت أنا إلى الايوان وقد مدَّ الطعام والملك الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً وبكى جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه . ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم الترددُ طرفي النهار وندخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه ، وكان من امارات انتهاء العمر إذ كان قد ألف مزاجه سقراً وحضراً ورأى الأطباء فصدّه ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقَلَّتْ رطوبات بدنه ، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف .

ولقد جلسنا في سادس مرضه واستندنا ظهره إلى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتلين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يفضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات ، سبحان الله ! الا يمكن أحداً تعديل الماء ، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدرح رأس من أحضره ، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه . ولما كان التاسع حدثت عليه غشبة وامتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة ^(١) من الأسواق وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يتربقون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حقن ^(٢) دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا

(١) قماش البيت متاعه .

(٢) حقن المريض دواؤه بالحقنة .

على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ^(١) . ثم أتينا إلى الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالاً فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وانفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه ^(٢) جبره الله تعالى أن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابع ، وانصرفنا طيبة قلوبنا . ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض وإن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت في القوة الأطباء .

.... ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر في أوله وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ^(٣) ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر أن نبني عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لم تنزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة ^(٤) وهو رجل صالح لبيت بالقلعة حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه . وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى . والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في أحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى

(١) الطائفة من الليل . أو نحو ثلثه وربعه .

(٢) هو الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين بن نجم الدين أيوب بن شاذي أخو صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٥٧٦ هـ .

(٣) هو أبو المعالي محيي الدين محمد بن أبي الحسن علي كانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية وكان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما تولى القضاء بدمشق ، توفي سنة ٦٦٨ هـ .

(٤) الكلاسة حي خلف الباب الشمالي لصحن الجامع الأموي في دمشق .

إلى قوله تعالى هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ سَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، صحيح . وهذه بقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه . ولقد حكى لي انه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَتَهَلَّلَ وجهه وسلمها إلى ربه . وكان يوماً لم يُصَبَّ الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوُّز والترخص إلا في ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدى بالنفس .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة الا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض^(١) حتى في ثمن الثبن الذي بلغت^(٢) به الطين ، وغسله الدولعي الفقيه . ونهضت إلى الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب قُوط^(٣) وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب

(١) لأنه لم يخلف في خزائنه غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً .

(٢) بله بشيء من الماء .

(٣) القُوط ما يأتزر به الخدم ، جمعه قُوط .

في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه جلّ عرفه ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعيول ما شغلهم عن الصلاة ، فصلّى عليه الناس أرسالاً^(١) . وكان أول من أمّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وكان متمّراً بها ، ودفن في الصُفّة الغربية منها . وكان نزوله في حفرة قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظاهر وعزّى الناس فيه وسكّن قلوب الناس ، وكان قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة الا نحن ، حضرنا وقرأنا وجددنا حالاً من الحزن .

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه واخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً واطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه .
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام^(٢)

(١) الرسل الجماعة . القطيع من كل شيء . جمعه ارسال .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد .

علو الهمة

لعبد الرحمن بن الجوزي^(١)

ما ابتلى الانسان قط بأعظم من علو همته . فان من علت همته يختار المعالي ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب . واني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب ، ولا أقول ليته لم يكن فانه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل . والعامل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل . ولقد رأيت أقواماً يصقون علو همهم ، فتأملتها فاذا بها في فن واحد ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضى :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي
فنظرت فاذا غاية أمله الامارة . وكان أبو مسلم الخراساني في حال شيبته لا يكاد ينام ، فقيل له في ذلك فقال : ذهن صاف ، وهمٌ بعيد ، ونفس تنوق^(٢)
إلى معالي الأمور ، مع عيش كعيش الهمج^(٣) الرعاع^(٤) . قيل : فما الذي يبرّد
غلبلك^(٥) ؟ قال : الظفر بالملك . قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأهوال ،
قيل : فاركب الأهوال ، قال : العقل مانع . قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من
عقلي جهلاً ، وأحاول به خطراً لا يُنال إلا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي الجوزي كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث والتاريخ وصناعة الوعظ صنف في فنون عديدة وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان وقيل عشر وخمسمائة وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧ هـ ببغداد وله كتاب المنتظم في التاريخ ، وتلبس ابليس في نقد عصره ، وصفة الصفوة ، وسيرة عمر بن الخطاب وغير ذلك من الكتب النافعة .

(٢) تشناق .

(٣) الرعاع من الناس الحمقى .

(٤) سفلة الناس .

(٥) العطش الشديد .

به . فان الخمول أخو العدم^(١) . فنظرت إلى حال هذا المسكين فاذا به قد ضُيعَ أهمُّ المهمات وهو جانب الآخرة . وانتصب في طلب الولايات . فكم فك و قتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم لم يتنعم في ذلك أكثر من ثمان سنين . ثم اغتيل^(٢) ونسي تدبير العقل فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال . وكان المنتهي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه^(٣) ومركوبه رجلاه والثوب جلده ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده ترى جسمه يكسي شفوفاً^(٤) تُرْبُهُ فيختار أن يكسي دروعاً تهده^(٥) فتأملت هذا الآخر فإذا نهيمته^(٦) فيما يتعلق بالدنيا فحسب . ونظرت إلى علو همتي فرأيته عجباً . وذلك اني أروم^(٧) من العلم ما أتيقن اني لا أصل اليه ، لأنني أحبُّ نيل كل العلوم على اختلاف فنونها . وأريد استقصاء^(٨) كل فرد . هذا أمر يعجز العمر عن بعضه . فان عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيتُه ناقصاً في غيره . فلا أعدُّ همتي تامة . مثل المحدث فاته الفقه . والفقيه فاته علم الحديث . فلا أرى الرضى بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة . ثم اني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق إلى ورعٍ بشر^(٩) . وزهادة معروف^(١٠) . وهذا مع مطالعة التصانيف وافادة الخلق ومعاشرتهم بعيداً . ثم اني أروم الغنى عن الخلق ، واستشرف الافضال عليهم . والاشتغال بالعلم مانع من الكسب . وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية . ثم اني أتوق إلى طلب

- | | | | |
|-----|--|------|--|
| (١) | العدم والعُدْم والعدمُ الفقران وغلب | (٦) | حاجته . |
| | على فقدان المال والفقر . | (٧) | أريد . |
| (٢) | أهلك وأخذ من حيث لا يدري . | (٨) | بلوغ الغاية . |
| (٣) | ما تيسر وهو من المصادر التي جاءت على مفعول . | (٩) | أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزي المعروف بالحافي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٢٦ هـ . |
| (٤) | جمع شف بالفتح ويكسر ، الثوب الرقيق . | (١٠) | أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان من كبار الأولياء توفي سنة ٢٠٠ هـ . |
| (٥) | هد البناء هذاً وهدودا هدمه شديداً . | | |

الأولاد ، كما اتوق إلى تحقيق التصانيف ، لبقاء الخلفان^(١) نائبين عني بعد التلف .
وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد . ثم اني أروم الاستمتاع
بالمستحسنيات ، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ، ثم لو حصل فرق جمع الهمة .
وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فانه متعود للترفه^(٢) واللفظ .
وفي قلة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين اضرار فابن أنا وما وصفته من حال من
كانت غاية همته الدنيا . وأنا لا أحب أن يحدش حصول شيء من الدنيا وجهه
ديني بسبب . ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي . فواقلقي من طلب قيام الليل .
وتحقيق الورع مع اعادة العلم . وشغل القلب بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن
من المطاعم . وواسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقات الناس وتعليمهم .
ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة^(٣) غير اني قد استسلمت لتعذبي
ولعل تهذيبي في تعذبي ، لأن عليان الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل .
وربما كانت الخيرة في الطلب دليلاً إلى المقصود . وها أنا أحفظ أنفاسي من أن
يضيع منها نفس في غير فائدة . وان بلغ همي مراده ، والا فنية المؤمن أبلغ من
عمله^(٤) .

(١) جمع خلفه ما يبقى أو يتبع .

(٢) للتنعم .

(٣) عائلة الرجل أهل بيته الذين يعولهم .

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي .

سيد التابعين سعيد بن المسيّب

لابن خلكان^(١)

كان سعيد سيد التابعين ، من الطراز الأول^(٢) جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع . سمع سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة رضي الله عنهما . قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة : ائت ذاك فسله . يعني سعيداً . ثم ارجع إلي فأخبرني . ففعل ذلك وأخبره . فقال : ألم أخبركم أنه أحد العلماء . وقال أيضاً في حقه لأصحابه : لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسره ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وسمع منهم . ودخل على أزواج النبي ﷺ . وأخذ عنهن . وأكثر روايته المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه . وكان زوج ابنته . وسئل الثوري ومكحول : من أفقه من أدركتما ؟ فقالا : سعيد بن المسيّب ، وروي انه قال : حججت أربعين حجة . وعنه انه قال : ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة . وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة لمحافظته على الصف الأول . وقيل : انه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة وكان يقول :

(١) شيخ المؤرخين البارع في تصنيفه . شمس الدين أحمد الأربلي المعروف بابن خلكان . ولد سنة ٦٠٨ هـ كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً . متفرداً في علم الأدب والتأليف ، ولّي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة . وأفتى ودرّس ودام بها نحو سبع سنين ، ثم أعيد إلى قضاء دمشق وسرّ الناس بعوده . أعجب علماء التاريخ والمشرقيات بكتابه «وفيات الأعيان» واشتدّت عنايتهم به لما يمتاز به من التحرير وغزارة المادة وكثرة الفوائد وحسن العبارة والاقتصاد في الوصف والبعد عن المبالغة ، ومعرفة طبقات الناس وما يحيدونه من فنّ وفوقون فيه . وهو نتيجة دراسات طويلة وخبرة واسعة ، توفي سنة ٦٨١ هـ .

(٢) الطراز كلمة فارسية عرّبت وأصل معناها بالفارسية التقدير المستوى والمراد هنا من الشكول الجيدة الحسنة المتفوقة .

ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله . ودعي إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال : لا حاجة لي فيها . ولا في بني مروان . حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم .

وقال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً ، فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها . فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هلا أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ ! فقال : ان أنا فعلت تفعل ؟ قلت : نعم ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو قال على ثلاثة . قال : فقممت وما أدري ما أصنع من الفرح . فصرت إلى منزلي . وجعلت أتفكر من آخذ وأستدين . وصليت المغرب . وكنت صائماً ، فقدمت عشاوي لأفطر . وكان خبزاً وزيتاً ، وإذا بالباب يقرع . فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . ففكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب ، فانه لم ير منذ اربعين سنة الا ما بين بيته والمسجد . فقممت وخرجت . وإذا بسعيد بن المسيب . فظننت انه قد بدا له ^(١) . فقلت : يا أبا محمد . هلا أرسلت إلي فأتيك ؟ قال : لا . أنت أحق أن تأتي . قلت . فما تأمرني ؟ قال : رأيتك رجلاً عزباً ^(٢) قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك . وهذه امرأتك . فاذا هي قائمة خلفه في ضوله ثم دفعها في الباب ورد الباب . فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب . ثم صعدت إلى السطح . فناديت الجيران ، فجاءوني . وقالوا . ما شأنك ؟ فقلت : زوجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته وقد جاء بها على غفلة . وها هي في الدار . فتزلوا إليها . وبلغ أمي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام ان مسستها قبل أن اصالحها ثلاثة أيام . فأقممت ثلاثاً ثم دخلت بها . فاذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى . وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج . قال : فمكث شهراً لا يأتيني ولا آتية .

(١) أي ظهر له رأي غير الذي رآه من قبل يريد أنه يريد أن يرجع .

(٢) بفتح الحاء من لا أهل له من الرجال والنساء جمعه عزاب وأعزاب .

ثم أتته بعد شهر وهو في حلقة . فسلمت عليه . فردَّ عليَّ ولم يكلمني حتى انفض من المسجد ، فلما لم يبق غيري . قال : ما حال ذلك الانسان ؟ قلت : هو علي ما ما يحب الصديق ويكره العدو . قال : ان رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي . وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولَّاه العهد . فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد ، وصبَّ عليه الماء . قال يحيى بن سعيد : كتب هشام بن اسماعيل والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان : أن أهل المدينة أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان الا سعيد بن النسيب . فكتب أن اعرضه على السيف . فان مضى فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة . فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار^(١) وعروة بن الزبير^(٢) وسالم بن عبد الله^(٣) على سعيد بن المسيب . وقالوا : جئناك في أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك ان لم تباع ضربت عنقك . ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً . فاعطنا احداهن . فان الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب . فلا تقل لا ولا نعم . قال : يقول الناس : باع سعيد بن المسيب . ما أنا بفاعل . وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم . قالوا : فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً ، فانه يقبل إذا طلبك من مجلسك فلم يجده . قال : فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة . ما أنا بفاعل . قالوا : فانتقل من مجلسك إلى غيره فانه يرسل إلى مجلسك . فإن لم يجده أمسك عنك . قال : أفرقاً من مخلوق ؟ ما أنا

(١) هو أبو أيوب سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبي ﷺ وأخو عطاء بن يسار وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً ثقة عابداً ورعاً حجة روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم ، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر توفي سنة ١٠٧ هـ .

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام أحد الفقهاء السبعة بالمدينة سمع خاله عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروى عنه ابن الشهاب الزهري وغيره كانت ولادته سنة ٢٢ هـ وتوفي سنة ٩٣ هـ كان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليتنظر إلى عروة بن الزبير .

(٣) هو سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب أحد فقهاء المدينة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم روى عن أبيه وغيره وروى عنه الزهري ونافع وتوفي في آخر ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ .

بمتقدم شيراً ولا متأخر . فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر ، فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه ، فلما صلى الوالي بعث إليه ، فأُتي به ، فقال : ان أمير المؤمنين كتب يأمرنا ان لم تباع ضربنا عنقك ، قال نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين ، فلما رآه لم يجب أخرج إلى السُدة^(١) فمدت عنقه وسلت السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد ، فاذا عليه ثياب شعر ، فقال لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن ، فضربه خمسين سوطاً ، ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال : ان هذه لوجوه ما نظرت اليها منذ أربعين سنة ، ومنعوا الناس أن يجالسوه ، فكان من ورعه إذا جاء اليه أحد يقول له : قم من عندي ، كراهية أن يضرب بسببه .

قال مالك رضي الله عنه : بلغني ان سعيد بن المسيب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلي من المسجد في غيره ، وانه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع ، قيل له ان يترك الصلاة فيه ، فأى الا أن يصلي فيه .

وكان يقول : لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة الا بانكار من قلوبكم ، لكي لا تحبط أعمالكم ، وقيل له - وقد نزل الماء في عينه - الا تقدح عينك ؟ قال : لا حتى على من أفتنحها .

وكانت ولادته لستين مضتاً من خلافة عمر رضي الله عنه ، وكان في خلافة عثمان رضي الله عنه رجلاً .

وتوفي بالمدينة سنة احدى - وقيل : اثنتين ، وقيل : ثلاث ، وقيل : أربع ، وقيل : خمس - وتسعين للهجرة وقيل : انه توفي سنة خمس ومائة والله أعلم .

(١) باب الدار وما حولها من الوراق جمعه سُدد .

النُّبُوَّةُ مُحَمَّدِيَّةٌ وَآيَاتُهَا

لِلْحَافِظِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ^(١)

وسيرة الرسول ﷺ من آياته . وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته . وأُمَّته من آياته . وعلم أُمَّته ودينهم من آياته . وكرامات صالح أُمَّته من آياته . وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث . ومن حين بعث إلى أن مات . وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله فانه كان من أشرف أهل الأرض نسباً من صميم^(٢) سلالة^(٣) ابراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد ابراهيم الا من ذريته . وجعل له ابنين اسماعيل واسحاق . وذكر في التوراة هذا وهذا . وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوءات غيره . ودعا ابراهيم لذرية اسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم . ثم من قریش صفوة^(٤) بني ابراهيم . ثم من بني هاشم صفوة قریش ومن مكة أم القرى . وبلد البيت الذي بناه ابراهيم ودعا الناس إلى حجّه ولم يزل محجوجاً من عهد ابراهيم . مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي . وُلِدَ في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وتحول به أبوه من حران سنة ٦٦٧ هـ فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الأربلي والمسلم بن علان وابن أبي عمرو الفخر في آخرين . وقرأ بنفسه وتفقه وتمهر وتميّز وتقدم وصنّف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجباً في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المعقول والمنقول والاطلاع على مذهب السلف والخلف . توفي ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ معتقلاً .

(٢) الصميم من كل شيء خالصه ومحضه .

(٣) النسل والولد ..

(٤) الصفوة بالتثليث من كل شيء خالصه وخياره .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة . ولم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الاخلاق وترك الفواحش والظلم وكل صنف مذموم . مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ومن آمن به وكفر بعد النبوة . لا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة . وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله . وكان أمياً من قوم أميين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والانجيل . ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره . وأخبرنا بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله . ولم يُعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ولا من ظهر^(١) كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره ، ثم انه اتبعه أتباع^(٢) الأنبياء وهم ضعفاء الناس . وكذبه أهل الرئاسة وعادوه وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء واتباعهم والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة فانه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم اياها . ولا كان له سيف بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسبون لا يرتدّون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الايمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجّها العرب من عهد ابراهيم فتجتمع في الموسم فباتل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقيه من تكذيب المكذب وجفاء الجافي واعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود . قد سمعوا أخباره منهم وعرفوه فلما دعاهم علموا انه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود .

(١) غلب .

(٢) جمع تَبَعَ والتبع بطلق على الواحد والجمع .

وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة الا قليلاً من الأنصار اسلموا في الظاهر ثم حسن اسلام بعضهم ، ثم أذن له في الجهاد ثم أمر به ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة . وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها . حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان^(١) ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة . وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم وأعدلهم ، وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين أمرين ، وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ﷺ مات ﷺ ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ، ولا شاة ولا بعيراً ، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً^(٢) من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار^(٣) ، ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه .

ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ،

(١) جمع كاهن وهو الذي يدعي معرفة الأسرار أو أحوال الغيب .

(٢) ستون صاعاً أو ساق .

(٣) بالفتح الضيعة وكل ما له أصل وقرار كالأرض والدار .

ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف الا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر الا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقبل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقبل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره .

وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا يذكر في التوراة والانجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر الا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب فليس في تلك الكتب ايجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، ونذب إلى الفضائل ، وترغيب في الحسنات الا وقد جاء به وبما هو أحسن منه . وإذا نظر اللبيب^(١) في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع وأمتة أكمل الأمم في كل فضيلة فاذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم . وان قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً . وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى

(١) أي العاقل ج الياء .

وعيسى وداود والتوراة والانجيل والزبور الا من جهته فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويُقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم) وقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) (١)

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

الظالم مؤذن بنحرا ب العمران

لا بن خلدون^(١)

اعلم ان العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب . فاذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها . وان كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبه . والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال وابدع^(٢) الناس في الآفاق من غير

(١) ٧٣٢ - ٨٠٨ ولد هذا العالم الكبير في تونس ونشأ في حجر النعم والعلم ، وشارك في جميع العلوم وأتقنها وتعمق فيها وتبحر في التاريخ وتقلد الكتابة والحجابه والقضاء ووفد سنة ٧٦٤ هـ على الأندلس فاحتفى به الملوك والأمراء وانفرد به صاحب غرناطة دون وزيره فدببت إليه عقارب الحسد والحقد ، فعاد إلى وطنه ثم أخذ يحول ويطوف في الأرض حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر وولى القضاء ثم انصرف عنها واعتزل ثم اشتغل واعتزل إلى أن وافاه أجله .

وقع الاتفاق على ابن خلدون إمام فلسفة التاريخ وأبو عذرتها ، ومقدمته للتاريخ لم يعمل مثلاً . ازدانت بها مكبات العالم . ولا يزال الكتاب غصاً جديداً في مباحث كثيرة ، صادقاً في آراء ونظريات كثيرة . وابن خلدون إمام طريقة في الكتابة لا تزال مثلاً جميلاً للكتابة العلمية الرزينة ، أسلوبه طبعي عامر محكم وهو مع ذلك رشيق متسق ، وله في تجديد الكتابة ونقلها إلى الطور الحديث فضل كبير .

(٢) تفرقوا .

تلك الايالة^(١) في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فحَفَّ ساكن القطر وملت دياره وخربت أمصاره واختلَّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة .

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبدان^(٢) صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عَرَّض به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له : ان يوماً ذكراً يروم نكاح يوم انثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها : إن دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية وهذا أسهل مرام . فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبدان وسأله عن مراده فقال له : أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشرعية الا بالملك ، ولا عزٌ للملك الا بالرجال . ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل إلى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل إلى العمارة الا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قِيَمًا وهو الملك . وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانترعتها من أربابها وعمَّارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال واقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف^(٣) على من بقي من أرباب الخراج وعمَّار الضياع فانجزلوا عن ضياعهم وخلَّوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلَّت العمارة وخربت الضياع وقلَّت الأموال وهلكت الجنود والرعيَّة وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك الا بها ، فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانترعت الضياع من أيدي الخاصة ورُدَّت إلى اربابها وحُمِلوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند

(١) مقاطعة أو اقليم والكلمة في الدخيل . للمسلمين فارسية معربة جمعه موايدة .

(٢) فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضي القضاة (٣) الجور والظلم .

جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة اموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه .

فتفهم من هذه الحكاية ان الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ، ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد في الأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب . واعلم أن ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم ليسيراً لأن النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر ونجىء الدولة الأخرى فترقه بجدها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك في الأقل النادر .

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول . ولا تحسبن الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكة من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور . بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الأموال بغير حقها ظلمة . والمعتدون عليها ظلمة . والمنتهبون لها ظلمة . والممانعون لحقوق الناس ظلمة وغُصَّاب الأملاك على العموم ظلمة . ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لازدهابه الآمال من أهله . واعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهماً وأدلت من القرآن والسنة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصص^(١) .

(١) مقدمة ابن خلدون .

المدنية العجمية عند بعثة الرسول ﷺ

للشيخ ولي الله الدهلوي ^(١)

اعلم ! ان العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا . ونسوا الدار الآخرة ، واستحوذ ^(٢) عليهم الشيطان ، تعمّقوا في مرافق ^(٣) المعيشة . وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه . فما زالوا يعملون بها . ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها . حتى قيل : انهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة الف درهم .

(١) ١١١٤ - ١١٧٦ هو حكيم الإسلام وفيلسوفه المجدد الديني والعلمي الكبير قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي . قرأ العلم على والده وقرأ فاتحة الفراغ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخذ بدرس ويفيد ويؤلف إلى أن رحل في سنة ١١٤٣ إلى الحجاز واستفاد من علمائها وأفاد وأسند الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني ثم رجع إلى الهند وعكف على الدرس والافادة والتأليف والتجديد في العلم والدين إلى أن استأثرت به رحمة الله .

كان رحمه الله آية من آيات الله عبقرية نابغة من نوابع الإسلام . قال العلامة السيد صديق حسن خان القنوجي أمير بوفال : - لو سبق به الزمان وكان في القرون المتقدمة لعد من كبار الأئمة المجتهدين في الإسلام (أتحاف النبلاء) .

كان محدثاً مفسراً فقيهاً أصولياً متكلماً فيلسوفاً سياسياً ، كان كاتباً قديرًا بالعربية سيال القلم مؤلفاً مجيداً . وبعض كتبه لم ينسج على منوالها ، خصوصاً الفوز الكبير في أصول التفسير وإزالة الخفا في خلافة الخلفاء ورسالة الانصاف في سبب الاختلاف . أما كتابه الشهير حجة الله البالغة فهو كتاب فريد في موضوعه وهو بيان حقائق الدين وتطبيق العقل والنقل وشرح النظام الديني والسياسي . وهذا الفصل مأخوذ منه .

(٢) غلب .

(٣) منافع .

أو لا يكون له قصر شامخ وآبرن^(١) وحمام وبساتين . ولا يكون له دواب فارهة^(٢) وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع في المطاعم ، وتجميل في الملابس وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم .

فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم الا أن تمزق^(٣) وتولد من ذلك داء عضال^(٤) دخل في جميع أعضاء المدينة . وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم^(٥) وغنيهم وفقيرهم الا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه^(٦) وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء^(٧) لها .

وذلك ان تلك الأشياء لم تكن لتحصل الا ببذل أموال خطيرة^(٨) ولا تحصل تلك الأموال الا بتضعيف الضرائب^(٩) على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وان أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس^(١٠) والحصاد ، ولا تقنى^(١١) الا ليستعان بها في الحاجات . ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الاخرية أصلاً ولا يستطيعون ذلك .

وربما كان اقلهم واسع ليس فيهم احد يهمة دينه ، ولم يكن ليحصل أيضاً الا يقوم يتكسبون بتهئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة

- | | |
|---|--|
| (١) كلمة فارسية وهو ما يسميه العامة المنحر من كل شيء . | (٧) جمع الرجا أو الرجا الناحية لا أرجاء لها لا أطراف لها أي لا متى لها . |
| (٢) النافورة . | (٨) أي الكثيرة . |
| (٣) النشطة الحادة القوية . | (٩) جمع ضريبة وهي التي تعين على أحد من المال . |
| (٤) تقطع . | (١٠) مصدر داس يدوس دوساً ودياسة الزرع |
| (٥) بالضم الشديد وداء عضال أي داء معي غالب . | درسه . |
| (٦) فارسي معرب وهو سواد البلدة . | (١١) لا تجمع . |
| (٧) جمع تليب وهو من الإنسان ما في موضع اللب من ثيابه واللب موضع | |

الصناديد في هذه الأشياء والا لم يجدوا عندهم حظوة^(١) ولا كانوا عندهم على بال . وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة يتكففون^(٢) منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم . وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم ، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة أن لا يتفقد حالهم فيضيق بعضهم بعضاً وتتوقف مكاسبهم على صحة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتعلق منهم وكان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه وتضيق أوقاتهم معه .

فلما كثرت هذه الأشغال تشبَّح في نفوس الناس هيآت خسيصة وأعرضوا عن الأخلاق الصالحة ، وان شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض فانظر إلى قوم ليست فيهم الخلافة ولا هم متعمقون في لذائذ الأطعمة والألبسة تجد كل واحد منهم بيده أمره وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره فهم يستطيعون التفرغ لأمر الدين والملة ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة وملأها وسخروا الرعية وتسلبوا عليهم .

فلما عظمت هذه المصيبة واشتدَّ هذا المرض سخط عليهم الله والملائكة المقربون وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته فبعث نبياً أميناً ﷺ لم يخالط العجم والروم ولم يرسم برسومهم وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضى عند الله من غير المرضى وأنطقه بدم عادات الأعاجم وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها ، ونفث في قلبه ان يحرم عليهم رؤوس ما اعتاده الأعاجم وتباهوا بها كلبس الحرير والقسي^(٣) والأرجوان^(٤) . واستعمال أواني الذهب والفضة وحلى الذهب غير المقطع ، والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت^(٥) وغير ذلك . وقضى بزوال دولتهم بدولته ورياستهم برياسته وبأنه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده^(٦)

- | | |
|------------------------------------|---|
| (١) المكانة والمنزلة عند الناس . | (٥) زَوْقُ البيت نَقْشه . |
| (٢) يمدون كفهم إلى الناس يستعطون . | (٦) حجة الله البالغة باب اقامة الارتفاقات |
| (٣) ثياب مضلَّعة فيها الحرير . | واصلاح الرسوم . |
| (٤) الثياب الحرير . | |

أهل الطبقة العليا من الأمة

للسيد عبد الرحمن الكواكبي^(١)

الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما في الشيوخ ، مرتبة (الخَوَر^(٢) في الطبيعة) لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ، ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ، ويتوقعون الخيبة في كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الأجانب كما ينظر الصبيان الكمال في آبائهم ومعلمهم ، فيندفعون لتقليد الأجانب وأتباعهم ، فيما يظنونه رقة وظرافة وتمدناً . وينخدعون لهم فيما يغشونهم به ، كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به . فمنهم من يستحي من الصلاة في غير الخلوات ، وكاهمال التمسك بالعادات القومية ، فمنهم من يستحي من عمامته ، وكالبعد عن الاعتزاز بالعشيرة كأن قومهم من سقط البشر ، وكبذ الحزب للرأي كأنهم خلقوا قاصرين . وكالغفلة عن إثارة الأقربين في المنافع ، وكالقعود عن التناصر والتراحم بينهم كي لا يشم من ذلك

(١) ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي عام ١٢٦٥ هـ في بيت من الأشراف في حلب كانت فيه نقابة الأشراف . ونشأ في جو يمتاز بتقاليد العريقة من عزّة وإباء وشمم ، فنشأ مترناً في الحديث دقيقاً في الفكر ، نزيه النفس . تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية شأن أبناء جيله من الأشراف ، ولم يكتف بهذه الدراسة بل ارتوى من مناهل العلوم الرياضية والطبيعية وتعلّم اللغة الفارسية والتركية وانكب على قراءة الكتب التاريخية ودراسة القوانين العثمانية بصفة خاصة وتولى شتى الأعمال والمناصب للحكومة ، وأنشأ جريدة حرّة في حلب اسمها «الشهباء» وتعرّض لعداء الولاة في حلب ، وكان قوي الشعور بفساد حال المسلمين فخصص جزءاً كبيراً من حياته في تعرف أحوالهم في جميع أقطار الأرض وتشخيص أمراضهم وتلّمس العلاج لهم . فساح في بلاد المسلمين من الشرق إلى الغرب حتى وافته المنية في مصر يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ .

(٢) خور خوراً قتر وضعف .

رائحة التعصب الديني . وإن كان على الحق إلى نحو ذلك من الخصال الذميمة في أهل الخور من المسلمين الحسيدة في الأجانب . لأن الأجانب يموهون عليهم بأنهم يحسنون التحلي بها دونهم .

وهؤلاء الواهنة يحق لهم أن تشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم . كما قد يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير يقبلون يده أو ذبله أو رجله . وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم . وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق^(١) . وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك . وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات . ذاك يتناول وهم يتفاصرون . ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض . كأنهم للموت مشتاقون . وهكذا طول الالفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازي مفاخر . فصاروا يسمون التصاغر أدباً . والتذلل لطفاً . والتملق فصاحة . واللكنة رزانة . وترك الحقوق سماحة . وقبول الاهانة تواضعاً . والرضاء بالظلم طاعة . كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً . والخروج عن الشأن الذاتي فضولاً . ومد النظر إلى الغد أملاً . والاقدام تهوراً^(٢) . والحمية حماقة . والشهامة^(٣) شراسة^(٤) . وحرية القول وقاحة . وحب الوطن جنوناً .

وليعلم ان الناشئة الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتتعلق الأوطان بحبال هممتهم عساهم يأتون فعلاً . هم أولئك الشباب ومن في حكمهم المحمديون المتهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأي القوم عند شبابهم . الذين يفتخرون بدينهم فيحرصون على القيام بمبانيه الأساسية نحو الصلاة والصوم . ويتجنبون مناهيه الأصلية نحو الميسر والمسكرات . الذين لا يقصرون بناء قصور الفخر على عظام نحرها الدهر . ولا يرضون أن يكونوا حلقة ساقطة بين الأسلاف

(١) المطرق والمطرقة آلة من حديد ونحوه يضرب به الحديد ونحوه جمعه مطارق .

(٢) تهور الرجل وقع في الأمر بقلة مبالاة .

(٣) الشهامة الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل .

(٤) شرس الرجل شراسة وشرساً وشرساً كان سبب الخلق شديد الخلاف .

والأخلاف ، الذين يعلمون انهم خلقوا أحراراً ، فيأبون الذل والاسار . الذين يودون أن يموتوا كراماً ، ولا يحبون لثاماً ، الذين يجهدون أن ينالوا حياة رضية . حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شؤونه لا يحكمه غير الدين . وشريك أمين لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء . وولد بار لوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله ، الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب . الذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هي العلم . والبهيمية هي الجهالة . الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس ، الذين يعرفون أن القنوط وباء الآمال . والتردد وباء الاعمال . الذين يفقهون ان القضاء والقدر هما السعي والعمل . الذين يوقنون ان كل ما على الأرض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون الا المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار الا خيراً .

وأما الناشئة المتفرجة^(١) فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً ، وذلك لأنهم لا خلاق لهم تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت لا يتبعون مسلكاً ، ولا يسيرون على ناموس^(٢) مطرد^(٣) لأنهم يحكمون بالحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكسلاً . ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم ويستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولكن لا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا اتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندعون للتشبه بهم في التشبيب^(٤) والاحساس فقط دون التشبث بالاعمال التي يستوجبها الحب الصادق والحاصل ان شؤون الناشئة المتفرجة أيضاً لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف « لا خلاق » والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء . وبالطاعة ولو عمياء ، على أنه يوجد في المتفرجة أفراد غيورون كالراسخين من أحرار الاتراك الملتبيين غيرة تقتضي احترام مزيتهم^(٥) .

- | | |
|--|--|
| (١) المتفرجة المتشبهة بالفرجة والمتخلقة بأخلاقها . | (٤) شَبَّ الشاعر بفلانة قال فيها النسيب ووصف محاسنها . |
| (٢) الشريعة والمبدأ . | (٥) أم القرى للسيد عبد الرحمن الكواكبي . |
| (٣) قياس مطرد أي عام لا شذوذ فيه . | |

رسالة محمد عيسى

للشيخ محمد عبده^(١)

كانت دولتا العالم - دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب - في تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن^(٢) حالكة^(٣) . ومع ذلك فقد كان الزهو^(٤) والترف والاسراف

(١) وُلِدَ الشيخ محمد عبده عام ١٢٦٦ في أسرة فلاحين ، وتعلَّم في الجامع الأزهر - وهو على النمط القديم - فقصي فيه نحو اثني عشر عاماً ، ونال شهادة العالمية ، والتقى بالسيد جمال الدين الأفغاني فلزمه وتشبَّع بأفكاره وتشرب من روحه ، واتصل بالتدريس والصحافة والوظائف ، وحكم عليه في الثورة العرابية بالنفي ثلاث سنوات أقام خلالها في بيروت ، ودعاه أستاذه السيد جمال الدين إلى باريس فلبَّاه واشترك معه في اخراج مجلة « العروة الوثقى » كان للسيد فيه التوجيه والروح وللشيخ التحرير والصياغة ، واقلقت الانجليز والفرنسيين واضطهدوها فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً ، وقد بذرت بذوراً في العالم الإسلامي وأثارت الأفكار ، وعاد محمد عبده إلى بيروت عالماً ومعلماً ، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان وشغل نفسه بالتدريس . ورجع إلى مصر بعدما عفي عنه ، وتقلَّب في وظائف القضاء حتى عين مفتياً وعضواً دائماً في مجلس شورى القوانين ، واشتغل بإصلاح الأزهر واصلاح برامج التعليم وتهيئة الأفكار مقلعاً عن السياسة العملية ، مستعماً بحماية ممثلي الدولة البريطانية في مصر . وعُيِّن الشيخ محمد عبده بإصلاح أساليب اللغة العربية . وقد دعا إلى تدريس كتب المتقدمين الذين كانوا أصحاب الذوق الأصيل وكان سبباً في نهضة لغوية أدبية في مصر وتحول الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة ، وخلف مدرسة فكرية تأخذ بتعاليمه في الأقطار الإسلامية المختلفة ، توفي سنة ١٩٠٥ م .

(٢) جمع أحنة وهي الحقد .

(٣) مظلمة .

(٤) الفخر والتهب .

والفخفخة^(١) والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شره^(٢) هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادو في الضرائب وبالغوا في فرض الاتاوات^(٣) حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل ، في الاحتيال لسلب العاقل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمزت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعبين يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوي الألباب . ففقد بذلك الاستقلال الشخصي ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن في العجماوات^(٤) مع من يقتنيها^(٥) . ضلت السادات في عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص^(٦) النور الالهي الذي يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول ، فتهددي العامة إلى السبيل ، ويثور الجرم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقدفوا في عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة . ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل . وعدو كل ما يثمره النظر . الا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس . وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب . ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم . وذلك كان شأنهم في معاشهم . عبيد

(١) جمع عجماء وهي البهيمة .

(٢) يكتسبها ويربها .

(٣) تالؤه وإشراقه .

(١) الفخر بالباطل .

(٢) الحرص الشديد .

(٣) الجبايات والضرائب .

أذلاء . حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد^(١) من بقايا الحكمة الماضية ،
والشرائع السابقة . أوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم
بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من
الطبع . فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة^(٢) .
حيث ترجى السلامة والسلام . مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول
وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين . فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب
بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرعية معاً ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين
في شعوب متعددة ، وكان ذلك وياً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .
وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر
كل قبيلة في قتال أختها . وسفك دماء أبطالها ، وسي نسائها ، وسلب أموالها ،
تسوقها المطامع . إلى المعامع^(٣) ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ
العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما
جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعف الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار
حياتهم أو تنصلاً^(٤) من نفقات معيشتهم ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف
قيمة . وبالجملة فكانت ربط^(٥) النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة ،
وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ،
ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت
رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

- | | |
|---------------------|-----------------------------------|
| (١) شواذ . | (٤) خروجاً وتخلصاً . |
| (٢) الخبث والفسق . | (٥) الربط بضميتين جمع رباط وهو ما |
| (٣) الحروب والفتن . | يربط به . |

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل « ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمسة جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك .

وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول . ولم يقم على تربيته مهذب . ولم يعن بتثقيفه مؤدب . بين أتراب من نبت الجاهلية . وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوثام . وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً . وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين ، أدب الهي لم تخر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوام . فأكهل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته . ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما ان كان من ذوي قرابته . وأهل عصبته . ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينهيه . ولا عضد إذا عزم يؤيده . فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم . وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال . ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليفة . وما جاء في الكتاب من قوله : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ،

قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، ان ذلك هو الافك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا اليه من انفاذ المالكين ، وارشاد الضالين . وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

وجد شيئاً من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا . ولم تغره زخارفها . ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكفاية ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنث^(١) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه - إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الاهي وتجلي عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هذا موضعه .

ولم يكن من آباءه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعله جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم ، جاء الحبشي ليتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع^(٢) حجيجهم ومستوى العلية من آلتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته ، فقال هي أن ترد إليّ مائتي بعير أصبتها لي ، فلامه الملك على المطلب الحقيق ، وقت الخطب المخطر . فأجابه : أنا رب الإبل وأما البيت فله رب يحميه .

(١) التعبد .

(٢) الموضع بقصده الناس في طلب الكلاء .

هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام - وعبد المطلب في مكائنه من الرئاسة على قريش - فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا اعوان ، لا سليقة^(١) في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذي سما بهيمته على الهمم ، حتى انتدب^(٢) لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم . بل واحياء الرّمم^(٣) ؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في رُوعه^(٤) من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ عن عقائدهم ، واصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الالهية تنصره في عمله ، وتمده في الإتياء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الالهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوحي السماوي ، قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلي المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم - وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم - وفي الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه - أهاب بالطبعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنبؤوا سر الوجود الذي قامت به . صاح بدوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم . تناول المتحليين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل .

(١) الطبيعة .
(٢) قام نهض .
(٣) العظام البالية .
(٤) الذهن والعقل .

وكشف لهم بنور الوحي ، أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم .
وطالبهم بالتزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من
العبودية . والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية ، في الاستعانة برب واحد يستوي
جميع الخلق في النسبة إليه . لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم
أو فضيلة .

وخزاً^(١) بوغظه عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له .
ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل - مال على
قراء الكتب السماوية . والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكت^(٢) الواقفين
عند حروفها بغباوتهم . وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير
ما قصد من وحيها . اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ،
حتى يكونوا على نور من ربهم .

ولفت كل انسان إلى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين
ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل .
وميزه بالفكر . وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله
عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطتهم على فهمها والانتفاع بها
بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة
الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون
واسطة أحد . إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان
الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في
معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده - وقرر أن لا
سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان
بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الانسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وان

(١) طعن .

(٢) بكت عَنف وقرع ومنه تبيكت الضير .

كانا ممتزجين . وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة
الالهية من الحق .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقونه في الحياة الأخرى ،
وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص للعباد
في العدل والنصيحة والارشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس
أحباء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، اعداء ما جهلوا وان كان
رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواله أعداء أنفسهم ،
وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهذاب بصائر
العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى
فقير أمي مثله ، لا يروؤن فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة
باللوم والتعنيف .

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل . ويأخذهم
بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبهم للعب . ويحوطهم مع ذلك بالموعظة
الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه . أو أب حكيم في
تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم . رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته .

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز ؟ ما هذا العلم
في تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ ان هو الا خطاب الله القادر
على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع
الأذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف . وينفذ إلى القلوب . على لسان من اختاره
لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقم من هذا الاختصاص برهاناً عليه
بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة . لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتين إلى فهم ما يكتبون
وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون .
في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء . ناشئ بين الواهين لتقويم عوج

الحكماء . غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة . والنظر في سننه البديعة . أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويحيط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها . ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أقول ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم ؟ لا . لا أقول ذلك . ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صادق الأنبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الأبصار . أو يحير الحواس . أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة ، وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١) .

(١) سورة التوحيد .

الكوخ والقصر

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي^(١)

أنا ان كنت حاسداً أحداً على نعمة فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه .
قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره . ولولا ان للأوهام سلطاناً على النفوس لما
تضائل الفقراء بين أيدي الأغنياء . ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً
من دون الله .

أنا لا أغبط الغنيّ إلا في موطن واحد من مواطنه . إن رأيته يشبع الجائع .
ويواسي الفقير . ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه . والأرملة
التي فجعها القدر في عائلها^(٢) . ويمسح بيده دمة البائس والمحزون . ثم أرثي له بعد
ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من
قلب الانسان فيمتص الثمالة^(٣) الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل . وأرثي
له إن رأيته يعتقد ان المال هو منتهى الكمال الإنساني . فلا يطمع في فضيلة ، ولا
يحاسب نفسه على رذيلة . وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء . وطاول

(١) ولد السيد مصطفى لطفي في منفوط من أعمال مديرية أسيوط في مصر ، حفظ القرآن الكريم وتعلّم في الأزهر وواظب على دروس الشيخ محمد عبده ، وعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر وهو أديب مطبوع يرسل النثر حلواً سلسلاً محبوباً . كان دقيق الحس . رقيق العاطفة . رقيق القلم سهل البيان ، حلو العبارة . مشرق الديباجة . كان يكتب في صحيفة المؤيد بعنوان « نظرات » يقرأها الأديباء والشبان برغبة وجمعت في كتاب أسماه « النظرات » وله كتاب « العبرات » ومختارات المنفلوطي وروايات أشهرها « ماجدولين » توفي سنة ١٩٢٤ م .

(٢) عال الرجل عياله كفاهم معاشهم .

(٣) ما يبقى في أسفل الإناء أو الحوض من ماء وغيره

بعنقه السماء . وسلم بإيماء الطرف . وإشارة الكف . ومشى في طريقه يخزر^(١) بعينه خزرراً ليرى هل سجد الناس لمشيته . أو صعقوا من هيبتة ، وأرحمه الرحمة كلها ان عاش شحيحاً جعداً مقترراً على نفسه وعياله . بغيضاً إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته . ويستبطون ساعة حتفه .

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشاً . واروحهم بالاً إلا إذا كان جاهلاً مخدوعاً يظن ان الغني أسعد منه حظاً . وأرغد عيشاً . وأثلج صدرأ ، فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه . ويجلس في كسر^(٢) بيته جلسة الكئيب المحزون ، يصعد الزفرة فالزفرة . ويرسل العبرة فالعبرة . ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رب صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه . ويرى ان ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالا . وأكثر لألاء . من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق^(٣) بين يديه . وان تلك الحشبة^(٤) من الشعر أو الوبر أنعم ملمساً ، وألين مضجعاً ، من وسائد الحرير ونضائد^(٥) الديباج .

ولقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء . وان كانوا لا ينالون منهم ما يبلى غلة . أو يسبغ غصة ، وليت شعري ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وجد فلم لا يقبلون أيدي الصيارفة ولا ينهضون اجلالاً للكلاب المطوقة بالذهب . وهم يعلمون ان لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء . لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة أنفسهم . ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكتزونها انما هي أساود ملتفة على أقدامهم . وأغلال آخذة بأعناقهم . ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال لا في أحصا المال .

فليعظم الناس الكرماء . وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا أن الشرف شيء وراء الغنى والفقير . وأن السعادة أمر وراء الكوخ والقصر^(٦) .

- | | | | |
|-----|----------------------------------|-----|---------------------|
| (١) | خزر يخزر خزرراً من باب نصر . نظر | (٣) | اتتلق البرق لمع . |
| | بمؤخر عينه وتداهى ، وخزر من باب | (٤) | الفراش المحشو . |
| | سمع ضاقت عينه فهو أخزر . | (٥) | النضيدة الوسادة . |
| (٢) | الكسر والكسر الجانب من البيت . | (٦) | النضرات للمنفلوطي . |

سيدي احمد الشريف السنوسي

للأمير شكيب ارسلان^(١)

عندما قدمت إلى الآستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام^(٢) من عناء الأشغال وترويح^(٣) النفس بعد طول النضال^(٤) . أن أسكن ببلد صغير تنهياً لي فيه العزلة وتسهيل الرياضة ، ويكون دانياً من وطني سورية للملاحظة شغلي الخاص . وتعهد أملاكي فيها . فاخترت مرسين^(٥) .

(١) هو أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب ارسلان ، من بيت الأمراء الدروز العرب في الشام ، يتصل نسبه بالملك المنذر بن النعمان الشهير بأبي قابوس . ولد عام ١٨٦٩ في الشويفات ، واشتغل بالأدب والإنشاء والسياسة من أوائل عمره . وأفاد من صحبة السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ونشأ على حب هذه المدرسة وحب العقيدة الإسلامية وانتخب مبعوثاً في مجلس المبعوثان التركي . وحضر الحرب في طرابلس . ثم انتقل إلى جنيف حيث قضى معظم عمره في الدفاع عن قضايا المسلمين والعرب . وحرّم عليه قلمه أن يطأ بقدمه أكثر البلاد الإسلامية ، وانتقل في آخر حياته إلى وطنه وتوفي في ديسمبر عام ١٩٤٦ في بيروت . ودفن في الشويفات وكان قد أوصى أن يغسل ويكفن ويصلى عليه على طريقة أهل السنة ، رحمه الله تعالى .

يمتاز الأمير بين كتّاب هذا العصر بالرسوخ في اللغة العربية والتضلّع من أمثال العرب والأساليب القديمة ، يعطف على السجع أحياناً وله في الكلام المرسل احسان وابداع . ألف عشرات من المؤلفات وكتب الوفا من الصفحات أحسنها وأشهرها حواشيه على حاضر العالم الإسلامي ، وترجمة السيد السنوسي ملتقطة منها .

(٢) الاستراحة يقال : « اني لأستجم قلبي بشيء من اللهو » أي إني لأجعل قلبي يتفكك بشيء من اللهو .

(٣) الراحة .

(٤) الحرب والعمل وأصله الرمي بالسهم وكان الأمير مشغولاً في حرب طرابلس .

(٥) بلد واقع على شاطئ البحر الأبيض من سواحل تركيا وهو آخرها مما يلي سورية وبعده اسكندرونة .

وألقيت مرسة (١) غربي فيها .

وكان السيد السنوسي بلغه قدومي إلى دار السعادة ، فكتب لي يرغب إليّ في سرعة المجيء ويرحب بي . فلما جئت إلى مرسين ، ذهبت توأ (٢) لزيارته فأبى إلّا أن أنزل عنده . ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة . وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع وحق لي والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري
رأيت في السيد حبراً جليلاً ، وسيداً غطريفاً (٣) . واستاذاً كبيراً ، من أنبل (٤)
من وقع نظري عليهم مدة حياتي ، جلالة قدر ، وسراوة (٥) حال ورجاحة عقل ،
وسجاجة (٦) خلق . وكرم مهزة وسرعة فهم . وسداد رأي . وقوة حافظه . مع
الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة ، والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة .
سمعت انه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات ، ويقضي سائر ليله في
العبادة والتلاوة . والتهجد . ورأيت مراراً تنفج (٧) بين يديه السفر الفاخرة اللائقة
بالمملك فيأكل الضيوف والحاشية (٨) ويجترى (٩) هو بطعام واحد لا يصيب منه الا
قليلاً وهكذا هي عادته .

وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي
يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية ، ويتناول كل

(١) انجر السفينة ج مراس وإلقاء المرسة كناية عن الإقامة يقال ألقى مراسيه أي أقام .

(٢) يقال جاء توأ أي قاصداً لا يعرجه شيء .

(٣) بالكسر السري . السيد ، الحسن ج غطارقة وغطاريف .

(٤) ذو نجابة وفضل

(٥) المروءة والسخاء .

(٦) دماثة الخلق ولينه وسهولته .

(٧) تبسط .

(٨) أهل الرجل وخاصته ج حواش .

(٩) يكفني .

منهم ثلاثة أقداح شاي ممزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتحامى ^(١) شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته . وقد يتناول قدحاً من البنناع .

ومن عاداته انه يوقد في مجالسه غالباً الطيب . وينبسط السيد إلى الحديث . وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورفائقيهم وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الأولياء والصالحين وإذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر والباطن ،

وقد لاحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه ^(٢) على وجهه ، فبينما هو في تقواه من الأبدال إذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني انه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه . ويمتطي ^(٣) جواده ^(٤) بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال ^(٥) . وكثيراً ما كان بغامر ^(٦) بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية . ان لا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي إحدى المرات أوشك أن يقع في أيدي الطليان ^(٧) . وشاع انهم أخذوه اسيراً . وقد سألت عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين . وغير بعيد عن جيش الطليان . فسرخوا ^(٨) إليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة خاصة لركوبه . إذ كان اعتقادهم انه لا يفلت ^(٩) من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ^(١٠) وكان يمكنه أن يخيم ^(١١) عن اللقاء أو أن يتحرف ^(١٢) بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب

(١) يحترز ويتجنب .	(٨) أرسلوا ووجهوا .
(٢) العلامة والهيئة .	(٩) لا يتخلص .
(٣) يركب .	(١٠) مشيم يقال « زحف العسكر إلى العدو »
(٤) الفرس السريع ج جيا وأجيا وأجاويد	إذا مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم بابه
(٥) التعب والإعياء .	فتح .
(٦) يقاتل ولم يبال الموت .	(١١) أن يعدل وينصرف .
(٧) أهل إيطاليا .	(١٢) ينحرف ويميل .

تصادمهم فلم يفعل وقال لي : « خفت اني ان طلبت النجاة بنفسي اصاب المجاهدين الوهل ^(١) . فدارت عليهم الدائرة ^(٢) ، فثبت للطلبان وهم بضعة آلاف بثلاثمائة مقاتل لا غير . واستمات ^(٣) العرب وصدمو العدو ، فلما رأى وفرة ^(٤) من وقع من القتلى والجرحى ارتدوا على أعقابهم . وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين » . قال لي : وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذي كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية . كان قائداً ولكنه كان يغمس ^(٥) بنفسه في كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لي من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه . وهو اليوم دائم الترحم عليه ، والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلي ، من مشائخ بلاد عجلون ، ترك في بلاد الغرب ذكراً خالداً . والسيد احمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً ، وله عدة كتب منها كتاب كبير اطلعني عليه في تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الأعيان من مريديهم والمتصلين بهم ، ينوي طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين .

وإنما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدي محمد السنوسي ، وولده سيدي المهدي . ومحاذة سيدي احمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفي بالاذكار والأوراد ، دون القيام بغزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا في وجه دولة عظيمة كدولة إيطاليا ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما ، ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويخ ^(٦) طرابلس وبرقة كلهما

- | | | | |
|-----|---|-----|------------------------------|
| (١) | الفرع . | (٣) | أي ثبتوا وطلبوا الموت . |
| (٢) | النازلة . والمصيبة ج دوائر يقال « دارت عليهم الدوائر » أي نزلت بهم النوائب والدواهي . | (٤) | الكثرة . |
| | | (٥) | يغامر بها ويلقيها في الخطر . |
| | | (٦) | أي القهر والاستيلاء . |

مدة خمسة عشر يوماً من أول نزولهم . وان قواد من الانكليز المحنكين ^(١) في حروب المستعمرات ^(٢) والبوادي قالوا ان الطليان أفرطوا في التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس في ١٥ يوماً . والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسألة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التي قدرها اركان الحرب في ايطالية ١٥ يوماً ، وقدرها أركان الحرب في انكلترا ثلاثة أشهر تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هي كما كانت في بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية . ولا سيما هذا السيد العظيم سيدي احمد الشريف .

وكان الأوروبيون في عهد السلطان عبد الحميد يشكون إلى السلطان حركة السنوسي ، ويتوجسون ^(٣) خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الأوربية في افريقية . وطالما ضغطت ^(٤) دول أوروبا على السلطان لأجل ان يستدعي السيد المهدي إلى الآستانة ^(٥) ويأمره بالاقامة بها . ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه . ليخلو للأوربيين الجو في تقسيم أواسط افريقية . وخضد ^(٦) الشوكة الإسلامية في تلك الديار فكان السلطان يماطل ^(٧) هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار . بل كان يلاطف السنوسي كثيراً بالهدايا والكتابات ، إلى أن اشدت الضغط على السلطان في قضية السنوسي ، فأرسل رجلاً اسمه عصمت هك إلى بنغازي ^(٨) . ومنها إلى جغبوب ^(٩) بمأمورية ^(١٠) سرية . فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك ^(١١) من جهة ضغط الدول عليه . في أمر الدعاية السنوسية ، فأجابه السيد مهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيًا ولا إيجاباً ، وإنما تلا له

- | | | | |
|-----|--|------|------------------------------------|
| (١) | المجرئين الذين جعلتهم التجارب حكماء . | (٦) | أي الكسر وخضد شوكة قهره وأذله . |
| (٢) | جمع مستعمرة وهي ما تمتلكه دولة من الدول في بلاد غير بلادها . | (٧) | أي يسوف يوعد الوفاء مرة بعد أخرى . |
| (٣) | يخسون . | (٨) | قاعدة برقة . |
| (٤) | ضيق باب فتح . | (٩) | موضع . |
| (٥) | دار الخلافة العثمانية أي القسطنطينية . | (١٠) | أي بمهمة . |
| | | (١١) | التردد . |

آيات كريمة في معنى الاتكال على الله . ولكن السيد المهدي لم يعتَم (١) بعدها أن فارق الجنبوب إلى واحة (٢) الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجنبوب القريبة من مصر وبرقة إلى واحة الكفرة التي هي في أواسط الصحراء الكبرى ثم توغله (٣) من الكفرة إلى ناحية قرو التي اختاره الله فيها ، وهي على أبواب السودان هما من ارتياحه إلى العزلة . وميله إلى التناهي عن مراكز السلطة الرسمية . والخروج عن مناطق تأثير الدول الاستعمارية بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافي (٤) والقفار (٥) . مأهولة (٦) بأقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حرّاً في بث دعوته لا تصل إليه يد بضغط ، ولا تعلق فوق كلمته كلمة وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم في طاعة الله بعد أن كانوا يتسكعون (٧) في مهامه (٨) الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الامم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف في الدعاية الروحية على واحات الصحراء واطراف السوادين ، بل بث دعائه في أواسط إفريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ حمودة الملقاوي ، والسيد طاهر الدغماري . ورجالاً آخرون جالوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدي هو المراحم الأكبر لجمعية المبشرين الاوربية ، المنبئة في قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة (٩) اهتدى للإسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين بأسرها تشكو حزنها . وبثها من نجاح الاسلام في أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر . والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكوها إلى الطريقة السنوسية . كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة .

- | | |
|--------------------------------------|---|
| (١) لم يمكث ولم يلبث . | فيه ولا كلاً ولا باس ويجمع أيضاً على قفور . |
| (٢) أرض خصبة في صحار رملية ج واحات . | (٦) معمورة . |
| (٣) توغل في البلاد ذهب وأبعد . | (٧) تسكع في سيره أو أمره لم يهتد لوجهته . |
| (٤) جمع فقاء المفازة لا ماء فيها . | (٨) جمع مهمه أي المفازة البعيدة . |
| (٥) جمع قفر الخلاء من الأرض لا ماء . | (٩) السريعة . |

هذا من جهة القوة الروحية واما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدى ^(١) الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل . ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفروسية والرماية . ويث فيهم روح الانفة والنشاط . ويحملهم على الطراد ^(٢) والجلاد ^(٣) ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد . وقد أثمر غراس ^(٤) وعظه في مواقع كثيرة لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع ^(٥) قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتاً وكبراً . وليست الحرب الطرابلسية وجدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيين في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ إلى سنة ١٣٣٢ هجرية وحدثني السيد احمد الشريف ان عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده لا يرضى أن يمسخها له أحد من أتباعه المعدودين بالملئات قصداً وعمداً ليقنّدي به الناس ويحتفلوا ^(٦) بأمر الجهاد . وعدته ^(٧) وعتاده ^(٨) . وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمارين الحربية . من طراد ورماية . وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد في مرقب عال . والفرسان تنقسم صفين . ويبدأ الطراد . فلا ينتهي الا في آخر النهار . وأحياناً يضعون هدفاً . يأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد ويقرطسون ^(٩) في الرمي بجوائز ذات قيمة ترغيباً لهم في فضائل الحرب كما انه كان يوم الخميس من كل اسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها . ويشتغلون بأنواع

- | | |
|-----------------------------------|---|
| (١) السيرة . | (٧) بالضم ما أعدده لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عدد . |
| (٢) أي حمل بعضهم على بعض . | (٨) بالفتح ما أعد لأمر ما ، وكل ما هبى من سلاح ودواب وآلة حرب ج أعتد وعُتد وأعتدة . |
| (٣) المضاربة بالسيوف . | (٩) قرطس أصاب القرطاس أي الغرض . |
| (٤) اثبات الشجر في الأرض . | |
| (٥) تشابه . | |
| (٦) احتفل بالأمر أحسن القيام به . | |

المهن^(١) من بناء . ونجارة وحدادة . ونساجة ، وصحافة وغير ذلك .

لا نجد منهم ذلك اليوم إلا عاملاً بيده . والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدي وأبوه من قبله يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها^(٢) ، والجنان التي نسقوها بجوارها . فلا نجد زاوية إلا لها بستان أو بساتين ؛ وكانوا يستجلبون أصناف الاشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان ، وقد أدخلوا في الكفرة وحفوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتصقون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة^(٣) المحراث^(٤) » وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد اليمين^(٥) وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملأ تطيب خواطرهم . وتزيد رغبتهم في حرفهم^(٦) ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » وأحياناً يدمج^(٧) نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقا والسيحات انهم يسبقونا عند الله لا والله ما يسبقونا » . يريد بأهل الاوريقا العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاماً ، بمجرد كونكم صنّاعاً وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبة وشوقاً ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية إلا بها .

هذه الفرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير ، فهي

- | | | | |
|-----|-----------------------------|-----|--|
| (١) | جمع مهنة أي العمل . | (٥) | كناية عن العمل بشقة وعناء وكذلك عرق الجبين . |
| (٢) | شاد البناء رفعه بابه ضرب . | (٦) | جمع حرفة الصناعة ووجهة الكسب . |
| (٣) | حديدة الفدان التي تشق الأرض | (٧) | يُدخل . |
| | ج سيكك . | | |
| (٤) | آلة الحرث ج محارث . | | |

تجمع بين العمل الشرعي بحذافيه^(١) ، والتجرد الصوفي إلى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظماً لم يوفق إليه غيرها^(٢) ، ويظهر ان مؤسسي هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن السنوسي ، وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف . وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريفي ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبد الرحيم بن أحمد ، وسيدي عبد الله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم .

حدثني سيدي أحمد الشريف ان عمه الاستاذ المهدي كان يقول له : « لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك ، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمة » .

وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم ، وواسطة^(٣) عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته .

وقد ذُرف^(٤) السيد المشار اليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن ، لندورة الشيب في شعره ، وهو رائع المنظر ، بهي الطلعة ، عبل^(٥) الجسم ، قوي البنية ، لا يمكن ان يراه احد بدون أن يحله ويحترمه^(٦) .

(١) بأسره وأجمعه .

(٢) لقد سبقهم بهذا النظم في الهند بنحو قرن السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي إمام الطريقة وإمام المجاهدين ورئيس حكومة شرعية على تخوم الهند ووزيره وعينه مولانا إسماعيل الشهيد الدهلوي رحمهما الله تعالى ، راجع للتفصيل كتاب « إذا هبت ريح الإيمان » طبع بيروت .

(٣) واسطة العقد الجوهرة التي تكون في وسط القلادة وهي أجودها والمراد بواسطة عقدهم أفضلهم .

(٤) أرى وزاد .

(٥) الضخم .

(٦) توفي سيدي أحمد الشريف السنوسي في المدينة المنورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ .

الدِّينُ الصِّنَاعِي

للدكتور أحمد أمين^(١)

هل تعرف الفرق بين الحرير الطبيعي والحرير الصناعي ؟ وهل تعرف الفرق بين الأسد وصورة الأسد ؟ وهل تعرف الفرق بين الدنيا في الخارج والدنيا على الخريطة^(٢) ؟ وهل تعرف الفرق بين عملك في البقطة وعملك في المنام ؟ وهل تعرف الفرق بين إنسان يسعى في الحياة ، وبين إنسان من جبص^(٣) وضع في متجر لتعرض عليه الملابس ؟ وهل تعرف الفرق بين النائحة الثكلي^(٤) والنائحة المستأجرة ، وبين التكحل في العينين والكحل^(٥) ؟ وهل تعرف الفرق بين السيف يمسكه الجندي المحارب وبين السيف الخشي يمسكه الخطيب يوم الجمعة ؟ وهل تعرف الفرق بين

(١) ولد أحمد أمين عام ١٨٨٦م في مدينة القاهرة ودخل الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي فتخرج بها قاضياً وتعلم الانكليزية واشتهر ببحوثه الأدبية ومقالاته العلمية ، وفي عام ١٩٣٦ عين مدرّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب بعد قليل عميداً للكلية ، ومنح عام ١٩٤٨ لقب الدكتوراه مع جائزة فؤاد الأول ، وانتخب مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، وظلّ مشرفاً على لجنة التأليف والترجمة والنشر نحو ثلاثين سنة وأشرف على طبع كتب كثيرة ، وساهم في تأليف عدة كتب ، توفي عام ١٩٥٤ م . من أشهر مؤلفاته وأعظمها انتشاراً سلسلة كتب « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » وله « فيض الخاطر » مجموع مقالات في سبعة مجلدات ، والأستاذ أحمد أمين من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر ، يغلب على إنشائه الطبع والرّواء وعدم التكلف ، وله في البحوث العلمية أسلوب متين رشيق ، وله آراء فيها شذوذ وخلاف للعلماء .

(٢) ما ترسم عليه هيئة الأرض أو إقليم منها .

(٣) الجص الذي يبنى به .

(٤) التي فقدت ولدها .

(٥) مصدر كحل من باب سمع يقال كحل الرجل أي كان أكحل العينين حلقه .

الناس في الحياة والناس على الشاشة^(١) البيضاء ؟ وهل تعرف الفرق بين الصوت والصدى^(٢) ؟ إن عرفت ذلك فهو بعينه الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي . يكذب الباحثون أذهانهم ، ويجهد المؤرخون أنفسهم في تقليد صحفيهم ووثائقهم عن تعرف السبب في أن المسلمين أول أمرهم أتوا بالعجائب ، فغزوا وفتحوا وسادوا ، والمسلمين في آخر أمرهم أتوا بالعجائب أيضاً فضعفوا وذلوا واستكانوا ، والقرآن هو القرآن ، وتعاليم الاسلام هي تعاليم الاسلام ، ولا إله إلا الله هي لا إله إلا الله ، وكل شيء هو كل شيء ، ويذهبون في تعليل ذلك مذاهب شتى ، ويسلكون مسالك متعددة . ولا أرى لذلك إلا سبباً واحداً وهو الفرق بين الدين الحق والدين الصناعي . الدين الصناعي حركات وسكنات وألفاظ ، ولا شيء وراء ذلك ، والدين الحق دين روح وقلب وحرارة .

الصلاة في الدين الصناعي العاب رياضية ، والحج حركة آلية ورحلة بدنية ، والمظاهر الدينية أعمال مسرحية أو أشكال بهلوانية . و « لا إله إلا الله » في الدين الصناعي قول جميل لا مدلول له . أما في الدين الحق فهي كل شيء ، هي ثورة على عبادة المال ، وثورة على عبادة السلطان ، وثورة على عبادة الجاه ، وثورة على عبادة الشهوات ، وثورة على كل معبود غير الله . « لا إله إلا الله » في الدين الصناعي تتفق مع احناء الرأس والخضوع لشهوة البدن ، وتتفق مع الذلة والمسكنة . و « لا إله إلا الله » في الدين الحق لا تتفق إلا مع الحق . « لا إله إلا الله » في الدين الصناعي تذهب مع الريح وفي الدين الحق تزلزل الجبال .

الدين الصناعي صناعة كصناعة التجارة والحياكة ، يمهر فيها الماهر بالحذق والمران ، أما الدين الحق فروح وقلب وعقيدة . ليس عملاً ولكن يبعث على كل عمل جليل وكل عمل نبيل^(٣) .

(١) يريد الستار الذي يمثل القصة .

(٢) ما يرده الجبل أو غيره إلى المصوت مثل صوته ج أصداء .

(٣) الجليل والعظيم .

الدين الحق « اكسير » يحل في الميت فيحيا . وفي الضعيف فيقوى . هو حجر الفلاسفة تضعه على النحاس والفضة والرصاص فتكون ذهباً . هو العقيدة التي تأتي بالمعجزات فيقف العلم والتاريخ والفلسفة أمامها حائرة : بم تعلل ، وكيف تشرح ؟ هو الترياق الذي تتعاطى منه قليلاً فيذهب بكل سموم الحياة . هو العنصر الكيماوي الذي تخرج به الشعائر الدينية فتطير بك إلى الله ، وتخرج به الأعمال الدنيوية فتذلل العقبات مهما صعبت ، وتصل بك إلى الغرض مهما لاقته .

هو الذي وجده كل من نجح ، وهو الذي فقدته كل من خاب . هو الكهرباء^(١) الذي يتصل فيدور العجل ، ويسير العمل ، وينقطع فلا حركة ولا عمل . هو الذي يحل في الأوتار فتوقع^(٢) ، وكانت قبل حبلاً ، وفي الصوت فيغني وكان قبل هواء . الدين الحق يحمل صاحبه على أن يحيا له ويحارب له . والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يحيا به ، ويتاجر به ويحتال به

الدين الحق صاحبه فوق كل سلطة وفوق كل سياسة . والدين الصناعي يحمل صاحبه على أن يلوي الدين ليعخدم السلطات ويعخدم السياسة .

الدين الحق قلب وقوة ، والدين الصناعي نحو وصرف وإعراب وكلام وتأويل . الدين الحق امتزاج بالروح والدم وغضب للحق ونفور من الظلم وموت في تحقيق العدل . والدين الصناعي عمامة كبيرة وقباء يلمع وفرجة^(٣) واسعة الاكمام . « الشهادة » في الدين الحق هي ما قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » . والشهادة في الدين الصناعي اعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه حاشية وتصحيح قول مؤلف والاعتراض عليه .

الدين الحق تحسين علاقة الإنسان بالله ، وتحسين علاقة الانسان بالانسان لتحسن علاقتهم جميعاً بالله . والدين الصناعي تحسين علاقة صاحبه بالانسان

(١) قوة تتولد في بعض الأجسام بواسطة الحك أو الحرارة أو الانفعالات الكيماوية .

(٢) أي تبنى ألحان الغناء على موقعها وميزانها .

(٣) نوع من الأقيبة .

لاستدرار رزق أو كسب جاه أو تحصيل مغنم أو دفع مغرم .
لقد صدق من قال « ان هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهل كان
أوله إلا دين روح وهل كان آخره إلا دين صناعة ؟
جناية أهل كل دين أن يبتعدوا - كلما تقدم بهم الزمان - عن روحه ويحتفظوا
بشكله ، وان يقلبوا الاوضاع ، ويعكسوا التقدير ، فلا يكون للروح قيمة ، ويكون
للكل كل القيمة .
شأن « الإيمان » شأن العشق ، يحول البرودة حرارة ، والخمول نباهة ،
والرذيلة فضيلة ، والآثرة إثارة .
والإيمان الحق كالعصا السحرية ، لا تمس شيئاً الا ألحيت ، ولا جامداً إلا
أذابته ، ولا مواتاً الا أحيته .
من لي بمن يأخذ الدين الصناعي بكل ما فيه ، ويبيعني ذرة من الدين الحق
في أسمى معانيه ؟
ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح (١)

سالم مولى ابي حذيفة

للدكتور طه حسين^(١)

أقبل سَلَام بن حبير القُرَظي من الشام ، كعهده في كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض^(٢) وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة . وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُضْرَى^(٣) وتبعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه في نجد والحجاز وفي تهامة^(٤) واليمن . ولم يكد سَلَام بن حبير يستقر في بني قُرَيْظَة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود بنظرون ويشترون . ولم تمض أيام حتى كان سَلَام بن حبير قد باع تجارته

(١) وُلِدَ في مصر ١٨٨٩ وفقد بصره في صغره وجلس في الكُتَّاب وحفظ القرآن الكريم ودخل الأزهر ولم يكمل دراسته فيه وتوفَّر على دراسة الأدب العربي وسافر إلى باريس ونال الدكتوراه من جامعتها ، وعيِّن مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية وانتخب عميداً لها ، ثم انقطع إلى الإنشاء والتأليف ، وخالف الجمهور والمعروف في بعض الآراء وتطرَّف ، وقد أثار كتابه « الشعر الجاهلي » ضجَّة في مصر وسخط أكثر أهل العلم والدين وانتخب وزير المعارف في سنة ١٩٤٩ م .

الدكتور طه حسين راسخ في العربية ، عكف على مطالعة المصادر الأدبية القديمة ، وتذوق أسلوب كتب السيرة والتاريخ وقُلَّده ، له أسلوب خاص يعرف به بتسم بنقاء الكلمات وتبسيط الموضوع وتكرار المادة ، ويحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده ولا يتحمَّس له وتلك صناعة لا يحسنها كل واحد ، له « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » عدا كتبه الأدبية والتاريخية الكثيرة .

(٢) العرض المتاع وكل شيء سوى الدرهم والدينار .

(٣) بلد بالشام .

(٤) بلاد جنوبي الحجاز .

وأفاد منها مالاً كثيراً . ولولا هذا الصبي الذي عرضه سَلام على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً معتبطاً مجوَّلاً في أحياء يثرب مرسلأ رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفي أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبي كان غُصَّةً ^(١) في حلقة وحسرة في قلبه ، قد اشتراه في بُصْرَى من بعض الكلبيين بشمن بنحس زهيد ، وقدَّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذلك الذي أداه مثليه أو أمثاله . ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سَلاماً جالباً للرقيق أو مُتَجَرّاً ^(٢) فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبي ويلح في عرضه ويرغب في شرائه ، أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشترى سَلام هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهدَّه فيه ، فهو يبيعه ما ليس له فيه أرب ^(٣) . وكان الصبي بادي السقم ظاهر الضر ، كأنه قد لقي من الذين اتَّجروا فيه شراً ونُكراً ^(٤) . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى ^(٥) لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سَلام يزعم للناس أن هذا الصبي ذكي الفؤاد صَناع ^(٦) اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده ^(٧) . وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصطخر حتى استقرت في الأبلَّة ، فملك أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملك تجارة عريضة كانت تُصَرِّفها في أطراف العراق . فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِر جواباً ^(٨) ، وإنما يقول : زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلَّة ، فباعوه

- | | |
|--|---------------------------|
| (١) ما غُصَّ به الإنسان واعترض في حلقة . | (٥) انعطف . |
| (٢) تاجر وتاجر وأنجر ، تعاطى التجارة . | (٦) صناع اليد ماهر حاذق . |
| (٣) حاجة . | (٧) الاعوجاج . |
| (٤) منكرأ . | (٨) لم يرد جواباً . |

من بني كلب . وتعرض به بنو كلب في بصرى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيته فرقاً له قلتي ومالت اليه نفسي ، وقدّرت أن سيكون له شأن أي شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك إذن ؟ فيقول : ان ما أنفقت من المال فيه أحب إليّ وأثر عندي منه . وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه ، وليس لي أهل أكله اليهم ؟ والصبي مع ذلك ذكي القلب صناع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده . أنظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء . انه سريع الحس يخطف ما يرى دون أن يشبته^(١) وانظروا اليهما كيف تتوقدان كأنهما جذوتان^(٢) .

ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سَلَاماً وفي قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمزُّ ثُبَيْتَةُ بنت يَعَار الأوسية بَسَلَامَ ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا في أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترحمه . ثم لا تكاد تُطيل النظر اليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت ثُبَيْتَةُ : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير ؟ قال سَلَامُ : زعم من باعه لي من بني كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدري ! ولكني اشتريته من كلبي بسمى مَعْقِلًا ، وزعم لي أن أسرته أسرة شريفة أقبلت ... قالت ثُبَيْتَةُ : أقبلت من إصطخر فترلت الأبلّة وزارعت النبط وصرفت تجارتها في أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فاني له مشتريّة ، فبكم تبيعه مني ؟ قال سَلَامُ وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى في وجهه الجد والحزم : فاني لا أريد إلا ما أدبت من ثمن وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودي فأحسن الربح ، وربحت هي بשרاء هذا الصبي ربحاً لا يقوّم بالدرهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بשרائه الخير والبر

(١) دون أن يشبته : دون أن يعرفه حق المعرفة .

(٢) جمرتان .

والمعروف ، لم تُرد إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : بُعداً لهذه الحياة التي لا يرحم الإنسان فيها الإنسان ، ولا يرأف القوي فيها بالضعيف . ولا تَرِقَ فيها القلوب للأُم حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة^(١) . يأوي إليها . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لي صبيّاً مثله فعدا عليه العادون ومضوا به في غير مذهب من الأرض كيف كنت ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبي آخر الدهر ! هيهات ! لو كان لي صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة ومسية ، ولذكرته يَفْظِي ونائمة ، ولتبعته نفسي وذهبت في تصوّر حاله المذاهب ، ولما اطمأنت للعيش ولا نَعِمْتَ بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهي تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهي لا ترى اختطافه ، وكانت ترى تَوَلَّه^(٢) تلك الأم وتفجعها وحسرتها التي لا تخمد ، ولوعتها^(٣) التي لا تنطفئ ودموعها التي لا تغيض^(٤) . وكانت تقول لنفسها في نفسها وهي عائدة بالصبي إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدُّوا عنه العاديات^(٥) ، فكيف بنا نحن في يثرب ، هذه المدينة الخائفة التي يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتي يَسْلُ بعض أهلها السيف على بعض ، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يُلمَ بهم خطبٌ من الخطوب ! فلما بلغت الدار واستقرت فيها ، وعينت بالصبي حتى أُن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها في نفسها : هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لي من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبي ، ومن أذوق فيه من الحزن والشكل^(٦) مثل ما ذاق في هذا الصبي أمّه تلك الفارسية ونساء

- | | |
|--|-----------------------------|
| (١) عشيرة الرجل ورهطه الأدنون إليه . | (٤) غاض الماء غار أو نضب . |
| (٢) وَلَه وتَوَلَّه حزن حزناً شديداً حتى كاد يذهب عقله . | (٥) الخطوب . |
| (٣) اللوعة حرقة الحزن أو الهوى والوجد . | (٦) ثكلت الأم ابنها فقدته . |

أمثالها كثير . ولو استجابت الحياة لثبته لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي ، ولا تخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدرون ويدبرون ، والأيام تجري على غير ما قدرُوا ودبرُوا .

فقد عنيت ثبته بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكي القلب سريع الحس حديد اللسان كما قدر اليهودي ، أو أكثر مما قدر . وكانت ثبته له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت^(١) على أهلها في ذلك حتى أعيتهم^(٢) . ولكن وفد قريش يعمرون يثرب مُنصرفهم من الشام ذات عام ، فيمكنون فيها أياماً . ويسمع أبو حذيفة هُشَيْم بن عُتبة بن ربيعة بحديث ثبته هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع . ثم يحب أن يتريد من أخبارها قِليماً بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبته من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضي . وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوي المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذي رُدَّ عنه أصحاب القيل ، والذي لا يعدو عليه إلا الفجرة الآثمون ، شكَّت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخطبة هذا المسكي . ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة في وفد قريش ، فلا يكاد يستقر حتى ينكر من أمرها بعض الشيء ، لقد أصبح فعداً على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً . تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلاً . يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حَدَثَ في مكة لا يدري أيسيراً هو أم خطيراً ، ولكن شيئاً قد حدث فغير من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه . ثم يلتبس بعض صديقه في أندية قريش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموي ؟

(١) اعتلَّ بالأمر تعلَّل واعتذر .

(٢) أعجزتهم .

وأين طلحة بن عبيد الله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوي مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يؤثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوي بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجه الحزم من أمره ، أن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يرحوا أرض الحرم ، فما له يسأل عنهم ولا يُلمُّ^(١) بهم ! ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قَصْدَ فلان أو فلان من أولئك الصديق .

وقد أَلَمَّ بعثمان بن عفَّانَ وكان له خليلاً على ما كان بينهما من تفاوت في السن . كان عثمان قد تَخَطَّى^(٢) الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعد ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة في الأسفار قوة وأيداً^(٣) . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقَّاه صديقه بما تعود أن يتلقاه به من البشر^(٤) والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام^(٥) . قال أبو حذيفة : لقد التمسك أبا عمرو في أندية قریش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجلك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشط لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن^(٦) عثمان في الصمت . قال أبو حذيفة : ان لك أبا عمرو لشأناً ولا واللَّات والعزَّى . ولكن عثمان لم يكذب بسمع قَسَمَه هذا حتى لوى^(٧) وجهه . وينظر أبو حذيفة فاذا وجه صاحبه قد ازبدَّ^(٨) وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : ويحك أبا عمرو ! انك لتعرف ما بينك وبينى من الود ، وانك لي لخليل وفي أمين ، فأظهرني على ذات نفسك . قال عثمان في صوت وادع لين : فإن شئت أن

- | | | | |
|-----|--|-----|----------------------------|
| (١) | أَلَمَّ بالقوم وعلى القوم أتاها فترل بهم . | (٥) | الانقباض والاستحياء . |
| (٢) | تجاوز . | (٦) | أمعن في الأمر أبعد وبالغ . |
| (٣) | متانة . | (٧) | صرف . |
| (٤) | بشاشة الوجه . | (٨) | تغير لونه وأغبر . |

تستقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزى وهذه الآلهة التي لا تغني عنكم شيئاً .
هناك وجم^(١) أبو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : ويحك أبا عمرو ! فإنك اذن
قد صبت^(٢) ؟ قال عثمان في صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أضبُ أبا حذيفة ،
وإنما اهتديت . إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السنُّ بعد ، ولكنك قد رأيت
الدنيا وطوّفت في أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وجربت الأحداث والخطوب ،
أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلي لأنصاب^(٣) من خشب وصخر صورها الناس
بأيديهم ، ويستطيع من شاء منهم أن يجعلها جذاً^(٤) ؟ قال أبو حذيفة : ما أراك
أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكني لم أفكر في هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا
يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى
وحصحص^(٥) الحق ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدي ونسب الحق ،
متى تستصحبني إلى محمد ؟ قال عثمان : الآن إن شئت . وأمسى أبو حذيفة مسلماً ،
ودخل بإسلامه على ثيئته ، فلم تكذب تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع
الغلام سالم حديثهما فمالت إليه نفسه ، وإذا هو يؤمن كما آمننا . ولم يتقدم الليل
حتى زادت بيوت الإسلام في مكة بيتاً .

وتمضي أيام قليلة وإذا ثبيته تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد
الذين يَفُكُّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً : فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسي
وتقول له : إذهب سالم فاني قد سيبتك^(٦) لله عزَّ وجلَّ ، فوال من شئت . قال سالم
لأبي حذيفة : فهل لك في أن تكون لي ولياً ؟ قال أبو حذيفة : هيات ! لن أتخذك
مولى ، وإنما انت ابن لي منذ اليوم .

استوثق^(٧) رسول الله ﷺ لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حبيي يثرب : الأوس

- | | | | |
|-----|---------------------------------|-----|----------------------------------|
| (١) | عيس وجهه وأطرق لشدة الحزن . | (٤) | جذّه قطعه وكسره والجذاذ المكسر . |
| (٢) | صبا يصبو مال إلى الصبوة أي جهله | (٥) | بان ووضّح . |
| | الصبيان . | (٦) | أطلقتك . |
| (٣) | ما عبد من دون الله من الأصنام | (٧) | استوثق منه أخذ منه الوثيقة . |
| | والتماثيل . | | |

والخزرج ، وعاهدهم أن يؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بغي عليه أو أَرادَه بسوء حتى يُبلِّغَ رسالات ربه . وبإيعه على هذا العهد نُقباء هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الاسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشرَّ به مَنْ أرسله رسول الله ليُبشِّرَ به . فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الاسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالاً ، وهو ﷺ مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُباء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله . وكانوا في أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالمُ بن أبي حذيفة ، فيَقْدَمُونَهُ ليؤمهم في الصلاة ، وفيهم أعلام من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمهم في الصلاة . فيُكبرون^(١) من أمر سالم هذا بادئ الرأي ، ثم لا يلبثون أن يذكروه ويعرفوه . يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلي بهذه الناجمة^(٢) من أصحاب محمد مَنْ هَاجَرَ مِنْهُمْ إلى المدينة وَمَنْ كان من أهلها ! انه سالم . ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليدكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبيّاً حَدَثاً^(٣) لا يُحسن العربية ولا يفهمها . وما هي الا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثبّيتة بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه . ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سلام بن حبير لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون

(١) أكبر الأمر رآه كبيراً وعظم عنده .

(٢) الجماعة الناشئة الجديدة .

(٣) شاباً .

إلى هذه الناجمة من أصحاب محمد يؤمهم فارسي قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردُّ بعضهم على بعض رَجْعٌ ^(١) هذا الحديث فيقول : ان هؤلاء الناس لشأناً . انهم يُسَوِّدون العبيد ، وَيُلْغُونَ ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وانا لنرحم قريشاً مما أَلَمَّ بها ، وانا لنعذِر قريشاً مما فعلتُ بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنهم قريش ، ولنفيهاهم عن أرضنا كما نفثهم قريش . ولكن هل إلى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومننا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدِّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يُؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَعْجَبُونَ فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يَوْمُ الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفرأً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم اسلامهم . ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدَّتْ عليهم الحرية بعد أن نشأوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنِّصْفَةِ ^(٢) والمساواة . ثم يتحدَّثُونَ في ذلك إلى المسلمين من قومهم ، فيقول لهم هؤلاء : ان الاسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا بين الناس إلا بالتقوى وبما يقدمونه بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوها بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألّفوه ، وإذا هم يميلون إلى الاسلام ، ثم يسرعون اليه ، ثم يحرصون على أن يؤمهم سالم بن أبي حذيفة ، ذلك الذي كان عبداً بالأمس فأصبح يَوْمُ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدي الله ^(٣) .

(١) رجع الحديث أو الرسالة جوابه .

(٢) الإنصاف والعدل .

(٣) الوعد الحق .

الفردوس الإسلامي في قارة آسيا

للاستاذ علي الطنطاوي^(١)

نحن الآن في الهند ، في القارة التي حكمناها ألف سنة ، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، في (الفردوس الإسلامي المفقود) حقاً ، ولئن كانت لنا في اسبانيا اندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا ههنا اندلس أكبر . فيها اليوم اربعمائة مليون - خمس سكان الأرض . ولئن تركنا في الاندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء ابطالنا ، ولئن خلّفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فان لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه ، وحضارة خيرة وشيت^(٢) جنباتها^(٣) .

(١) هو علي بن مصطفى الطنطاوي ، وُلد عام ١٣٢٧ هـ في دمشق ، وكان أبوه أمين الفتوى ، وقرأ على علماء دمشق كالشيخ أبي الخير الميداني والشيخ صالح التونسي وغيرهم ودخل مدرسة نظامية ، ونال شهادة الحقوق من الجامعة السورية ، ومكث أقل من سنة في دار العلوم المصرية ، واشتغل بالصحافة فترة وتعلم اللغة العربية في العراق ولبنان ومصر ، ودخل في القضاء عام ١٩٤٠م ولم ينقطع عن التدريس والكتابة ، كان مستشاراً بمحكمة التمييز بدمشق ، ثم انتقل إلى الحجاز بعد الطوارئ في سوريا ، وتعيّن أستاذاً في إحدى الكليات في مكة ، ثم انصرف إلى الإذاعة والتلفزيون يحدث ويحجب ويفيد في علم غزير وأدب جم .

الأستاذ علي الطنطاوي من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة العربية في هذا العصر ، تجمع كتابته بين الرشاقة والجزالة ومحاسن القديم والجديد ، ومقالاته هذه التي يستعرض فيها تاريخ الهند الإسلامي وقد كتبها على أثر زيارته للهند ، تدل على اقتداره على اللغة وبلاغته في التعبير ، له من الكتب « أبو بكر الصديق » و « عمر بن الخطاب » و « رجال في التاريخ » و « قصص من التاريخ » وكتب كثيرة .

(٢) وشي الثوب يثي وشياً وشية حسنه بالألوان ونمنمه ونقشه .

(٣) جوانبها ونواحيها .

وطرزت ^(١) حواشيها ، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات ، وإن لنا فيها معاهد ومدارس ، كم أنارت عقولاً ، وفتحت للحق قلوباً ، ولا تزال تفتح القلوب وتثير العقول ، وإن لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء ، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهر الارض .

* * *

لقد مرت بالهند أربعة عهود إسلامية ، عهد الفتح العربي ، ثم عهد الفتح الأفغاني ، ثم عهد الماليك ، ثم عهد المغل .

كان أول من حمل إلى الهند لواء الاسلام ، محمد بن القاسم الثقفي ^(٢) ، القائد الشاب الذي هجر منازل قوميه في الطائف ، ومشى إلى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج ، الذي ظلم كثيراً وقسا كثيراً ، وكانت له هنات ^(٣) غير هينات ، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقيين وفتح لنا المشرق كله والسند فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التي ضرمها الخوارج ، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان ، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند ، ولولا الايمان الذي يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التي تزيح ^(٤) الجبال ، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب ، لما استطاع هذا الجيش أن

(١) طرّز الثوب بكذا أعلمه .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، كان من بني أعمام الحجاج وخخته ، عقد له الحجاج على ثغر السند فوصل إلى الملتان بفتح ويدوخ وفتح السند ومات الحجاج ومات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان وولى يزيد بن عبد الملك السكسكي السند فحمل محمد بن القاسم مقيداً وبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكبرج وعذبّه صالح والي العراق في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قتل آدم أخاً صالح ، وقد كان فتح السند على يد محمد بن القاسم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان قتله في نحو سنة ست وتسعين .

(٣) خصلات شرّ وزلات .

(٤) أزاحه أبعدّه .

يقطع خمس محيط الكرة الأرضية ، وهو ماش على الاقدام ، أو معتلي ظهور الإبل والدواب . ما عرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طائرة . ولما وضع ابن القاسم الحجر الاول في هذا الصرح الهائل ، وأدخل الشعاع الاول من هذه الشمس التي أشرقت في مكة إلى هذه القسرة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا ^(١) !

* * *

وعاد اليها لواء الإسلام مرة ثانية في القرن الرابع ، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي ، الذي خرج من غزنة وكانت قصبة ^(٢) بلاد الأفغان ، وهي إلى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته اسد الفلا ^(٣) . وجن الليالي السود ، ثم دخل الهند وخاض عشرات من المعامع ^(٤) الحمر . التي يرقص فيها الموت . ويشتعل الدم ، واجتمع عليه امرء الهند وأقباؤها ^(٥) جميعاً ، فطحز أبطالهم ومزق جيوشهم . ومضى حتى جاب البنجاب . واستجابت له هاتيك البلاد فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الاسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغوري . فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، وأكمل منه ما كان ناقصاً . وملك شمالي الهند ، وبلغت جيوشه دهلي . فأوقدت فيها منار الدعوة الإسلامية . فضوأت بغد الظلمة ، وأبصرت بعد العمى . ودوى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة ، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والاصنام . أن خابت آلهتكم . وهوت أصنامكم . إنما هو إله واحد . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

- | | |
|------------------------------------|----------------------------|
| (١) شهادة الجامعة الأولى . | (٤) الحروب . |
| (٢) أعظم مدن البلاد . | (٥) جمع قَبْل وهو الرئيس . |
| (٣) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة . | |

قامت في الهند حكومة اسلامية قرارها دهلـي .

وبينما كان قطب الدين ايلك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه كان الشيخ معين الدين الجشتي^(١) يفتح القلوب بدعوته فدخل الناس في الإسلام أفواجا . وكان هذا الفتح أبقي وأخلد . وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان ، وسيبقى الإسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان .

وولى الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين ، الذي فتح دهلـي وبدأ به عهد الممالك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب (قطب مينار) الذي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلـي ، وشمس الدين الالتمش وغيث الدين بلبن .

ثم جاء الخلق وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الأمن ، وأوغل^(٢) في الهند .

وجاء من بعدهم آل تغلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان في أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الحليم الكجراتي .

وكان للعلماء في دولة الممالك دولة أكبر منها ، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك ، ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسيني الندوي^(٣) ، أن السلطان

(١) هو الشيخ الإمام الزاهد الكبير الحسن بن الحسن السجزي شيخ الإسلام معين الدين الأجميري ، كان مولده سنة ٥٣٧ ببلدة سجستان ، قرأ العلم وسافر ودخل هارون قرية من أعمال نيسابور وأدرك بها الشيخ عثمان الهاروني فلازمه وأخذ عنه الطريقة وصحبه عشرين سنة ثم قدم دهلـي ثم سار إلى أجمير وسكن بها ، وإليه تنسب الطريقة الجشتية ويرجع الفضل في دخول العدد الكبير من المشركين في الإسلام واستقرار الإسلام في هذه البلاد ، توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن في أجمير .

(٢) أوغل وتوغل في البلاد ذهب وأبعد .

(٣) في رسالته « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » .

شمس الدين الألتمش الذي دانت ^(١) له البلاد كلها (وكان في القرن السابع الهجري) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي ^(٢) فيدخل زاويته ويسلم عليه تسلم المملوك على الملك ولا يزال يكبس ^(٣) رجله ويخدمه ويذرف ^(٤) الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وإن علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ نظام الدين البديوني ، الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدولة آبادي المفسر ^(٥) وأشرف على الموت عاده السلطان ابراهيم الشرقي ، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت .

وكانت زاوية نظام الدين البديوني ^(٦) ، أحفل بالقصّاد ، وأزخر بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي .

كان ذلك يا سادة ، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات ،

(١) ذلّت وأطاعت .

(٢) هو شيخ الإسلام قطب الدين بختيار الأوشي المعروف بالكعكي كان من كبار أولياء الله ، بايع الشيخ معين الدين الجشتي المذكور وفاز بالخلافة وله عشرون سنة ، وقدم دهلي وتوطن بها ، وقام بدعوة الخلق إلى الله وانتفع به خلائق ، ومن خلفائه الشيخ فريد الدين كنج شكر الأجودهني (م ٦٦٤ هـ) توفي رحمه الله سنة ٦٣٣ هـ .

(٣) كبس يكبس كبساً بابه ضرب على الشيء شدّاً عليه وضغط يعني يغمز رجله .

(٤) ذرّف تذريقاً الدمع صبّه .

(٥) هو ملك العلماء الشيخ أحمد بن عمر شهاب الدين الدولة آبادي ، صاحب الإرشاد في النحو والبحر المّواج في التفسير ، ولد في دهلي وتوفي في جنّبور سنة ٨٤٩ هـ .

(٦) هو الشيخ الإمام نظام الدين محمد بن أحمد البديوني ، أحد الأولياء المشهورين بأرض الهند ، انتهت إليه الرياسة في دعاء الخلق إلى الله والتسليك في طريق العبادة والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة ، ولد سنة ٦٣٦ هـ ببديون ، وسافر إلى دهلي وقرأ على أساتذتها وسافر إلى أجودهن وأخذ عن الشيخ الكبير فريد الدين مسعود (كنج شكر) الأجودهني وصحبه مدة وأجازاه الشيخ وانقطع إلى الله سبحانه بقلبه وقالبه واشتغل بالدعوة إلى الله والتربية ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ٧٢٥ هـ .

وزهدوا بما في أيدي الملوك ، فسعى إلى أبوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفي عهد السلطان ابراهيم اللودهي سنة ٩٣٣ هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مائة ألف ، باثني عشر ألفاً من فرسان المغل المسلمين . وأسس دولة المغل التي كانت أكبر الدول الإسلامية في الهند وكان من ملوكها . الملك الصالح اورنك زيب .

ولما مات بابر . وولي ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامي^(١) لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك . فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول ، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيمًا لم يسبق إلى مثله ، هو السلطان شيرشاه السوري ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون وهو الامبراطور أكبر وكان من أعظم الملوك ، حكم الهند كلها الا قليلاً ، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله وأكره الناس على الكفر . وابتدع لهم ديناً جديداً . وأزال معالم الإسلام . وأبطل شعائره ، وكان معه الجيش . وكان معه الأمراء . وكانت البلاد كلها في يده ، فمن يقوم في وجهه ، ومن ينصر الإسلام . ومن يدافع عن الدين ؟

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم . قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوي الإيمان بالله . كبير النفس والقلب . قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائد ، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه ، هو الشيخ أحمد السرهندي^(٢) . ولم يكن يطمع باصلاح الامبراطور ، ولا يجد فيه أملاً . فجعل يتصل بالقواد الصغار . وبالحاشية . ويعد لانقلاب شامل ، لا

(١) كبير النفس عالي الهمة .

(٢) هو الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي مجدد الألف الثاني ، وُلد في سرهند (الهند) ورسخ في العلوم وباع الشيخ عبد الباقي النقشبندي (م ١٠١٤ هـ) ونال منه الاجازة والخلافة في الإرشاد . وقام بالدعوة إلى الدين الصحيح ومحاربة البدع والإلحاد ، وإحياء السنن ، نفع الله به وبأولاده وخلفائه خلقاً لا يحصون وعادت به الهند إلى الإسلام ، توفي سنة ١٠٣٤ هـ .

لأنقلاب عسكري ثوري ، بل لأنقلاب روحي فكري ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والایمان . ولما مات أكبر وولي ابنه جهانكير ^(١) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير ، هو أحد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل أكبر إخوته ، ولا كان ولي العهد ، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك ، ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوَّده ، والفقه الحنفي وبرع فيه ، والخط وأتقنه ، وألمَّ بعلوم عصره ، وربى مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير وولي شاه جهان ، ولي كلاً من أبنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (اورنگ زيب ^(٢)) ولاية الدكن .

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن ، ولا مثيل لحبه إياها في الحب هي (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلَّدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقد رثاها فخلَّدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها ، ولا لحن موسيقي أغنية أعذب منها ، ولا صور مصور لوحة أروع منها ، فهي شعر ، وهي أغنية ، وهي صورة ، وهي أعظم تحفة في فن العمران . هي تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذي لان فيه الرخام لهذه الأيدي العبقريّة فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقته وفنه وسحره .

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح ، نحن أقصى أميركا إلى (اكراه) قرب دهلي ليشاهدوه ، ويسمعوا قصته وهي أعظم قصص الحب على الإطلاق . لقد صدَّع ^(٣)

(١) يعني فاتح الدنيا وتملكها .

(٢) يعني زينة العرش .

(٣) كسر قلبه وأحزنه .

موت هذه الزوجة الحبيبة الامبراطور العظيم ، فزهدي في دنياه لأنها كانت هي دنياه ،
وحقر ملك الهند لانها كانت أعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب^(١)
بعدها إلا أن يخلص^(٢) من حاضره ، ويوغل^(٣) يذكرياته في مسارب^(٤) الماضي ،
ليعيش بخياله معها ، يستروح^(٥) رباها^(٦) ، ويستجلي جمالها ، ويسمع خفي
نجاها ، ويحس حرارة أنفاسها ، ثم استحال حبه اياها حباً لهذا القبر الذي شاده لها ،
فجن به جنوناً ، وصار يحس في برودته حرارتها ، وفي جموده خطراتها ، وفي صمته
حديثها ، وانصرف عن الملك وأهمله فوثب ابنه الأكبر فولى الملك إلا اسمه ، وتصرف
بالأمر وحده . ونارعه إحوته . وجاء كل من إمارته : شجاع من البعال .
ومراد بنحش^(٧) من (الكحات) واورنك زيب هذا من الدكن ، واستطاع أن
يغلبهم جميعاً ، وينفرد بالأمر ووضع أباه في قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما
يشتهي من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري . وجعل له حبال سريره
مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح يرى منها (تاج محل) ،
على البعد وهو مضطجع في سريره كأنه أمامه ، وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ
دنياه !

* * *

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلثمائة سنة) وكأنني بكم تظنون
ان هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه واوراد النقشبندية ، سيدخل خلوته ، ويعمل
من قصره مدرسة أو تكية^(٨) ، يصلي ويقرأ في كتب الفقه ، ويسبب أمور الدنيا
ويهملها زاهداً فيها ، كلا يا سادة ، وما هذه خلائق الإسلام ، ولا هذي طريقته ،

- | | |
|-----------------------|--------------------------------|
| (١) حاجة . | (٥) استروح الشيء تشممه . |
| (٢) أخلص أفلت وتخلص . | (٦) الريح الطيبة . |
| (٣) يمعن ويبعد . | (٧) معناه معطي السؤل والمراد . |
| (٤) منافذه ومذاهبه . | (٨) الزاوية . |

إن العمل لاسعاد الناس ، وإقامة العدل ، ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة .

لذلك ترونه لبس لأمة^(١) الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الاربعين) ونهض بنفسه ، يقضي على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ، ويقرر العدالة والأمن في الأرض ، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه من سفوح همالية ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل .

من خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل ، أو نظر في أمور الناس ولكن اورنك زيب ، حقق مع ذلك من الاصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلا قليل من الملوك .

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها ، بمثل عين العقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نائمة^(٢) فساد ، وأقر كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالاصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها (اكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال امراء المجوس لفتح من نارها ، فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيئته وشدته في الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة ، ويكفي لتدركوا طول هذه الطرق أن تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات^(٣) !

(١) الدرع جمعها الأم ولؤم .

(٢) النغمة والصوت يقال أسكت الله نأتمته أي أمانته .

(٣) جمع خان وهو محل نزول المسافرين . والكلمة دخيلة .

وبنى المساجد في أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات^(١) للمجانين ، ومستشفيات للمرضى .

وأقام العدل في الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن ان ينفذ فيه حكم القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معلاً له مدلاً عليه ، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية ، وكان للامبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، وان من له عليه حق ان يقاضيه به أمام القاضي مع السوق والسواد من الناس .

كان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه وبنى لهم المدارس ، وجعل الرواتب .

ووفق إلى أمرين ، لم يسبقه اليهما أحد من ملوك المسلمين .

الاول : انه كان لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً الا طالبه بالعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيتين ، أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم - فما قول مدرسي الافتاء والأوقاف ؟

والثاني : أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، في كتاب واحد ، يتخذ قانوناً ، فوضعت له وبأمره وبإشرافه ونظرة الفتاوى التي نسبت اليه فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الفقه الإسلامي ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً .

وكان - بعد ذلك كله - يؤلف ، ألف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التي تعد في لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها ، وانه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك ، وانه كان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقين من هبات وعطايا ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها .

(١) جمع مارستان وهو دار المرضى ، والكلمة من الدخيل أصله بيمارستان .

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال . والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائبا عن المصر لأمر من الأمور . يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة . ثم يذهب حيث شاء . وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر . وما أدراك ما حر الهند ؟ وبحيي الليالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة . في كل اسبوع من أسابيع السنة . ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار . ويمد أهل الحرمين بالصلوات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم . والبراعة في فنون الحرب . وفي التنظيم الإداري . فكيف استطاع أن يجمع هذا كله ؟
كيف قدر أن يتعب هذه العبادة ؟ ويقضي بين الناس ؟ ويؤلف في العلم ؟ ويكتب المصاحف ؟ ويحفظ القرآن ؟ ويدير هذه القارة الهائلة ؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة ؟

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته . ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ووقت لأهله . ووقت لربه ، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها .
حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل . وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره وكانت بيده مفاتيح الكنوز . وكان يعيش عيش الزهد والفقر . ما مديده ولا عينه إلى حرام . ولا أدخله بطنه . ولا كشف له أزراره . كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معلودة من خبز الشعير . من كسب يمينه من كتابة المصحف لا من أموال الدولة .
رحمة الله على روحه الطاهرة^(١) .

تنبيه

قد يفقد الأديب المطلع بعض أعلام الأدب العربي في القديم والحديث ولا يرى لهم نصوصاً في هذا الكتاب فليعلم أن معهم موعداً في الجزء الثاني من الكتاب .

(١) مجلة « المسلمون » العدد الخامس من المجلد الرابع .

الفهرس

الصفحة	أصحاب النصوص	النصوص
٧	مقدمة الكتاب
٢١	القرآن	عباد الرحمن
٢٣	القرآن	سيدنا موسى
٢٧	سيدنا ومولانا محمد (صلى الله عليه وسلم)	جوامع الكلم
٢٩	سيدنا ومولانا محمد (صلى الله عليه وسلم)	الخطابة المعجزة
٣١	سيرة ابن هشام	في بني سعد
٣٤	أم المؤمنين عائشة	كيف هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم)
٤١	كعب بن مالك	ابتلاء كعب بن مالك (رضي الله عنه)
٤٧	عمرو بن ميمون	مقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)
٥٢	الحسن البصري	أخلاق المؤمن
٥٤	ابن المقفع	اخوان الصفا
٥٨	ابن السماك	وصف الزاهد
٦١	السيدة زبيدة والمأمون	بين السيدة زبيدة والمأمون
٦٣	أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ	بين قاض وقور وذباب جصور
٦٦	ابن عبدربه	القميص الأحمر
٧٠	المسعودي	كيف كان معاوية يقضي يومه
٧٣	ابن حبان البستي	استقامة الإمام أحمد بن حنبل وكرمه
٧٦	أبو الفرج الأصبهاني	اشعب والبخل
٧٩	أبو بكر الخوارزمي	رسالة عتاب
٨١	أبو حبان التوحيدي	حديث الناس
٨٦	الإمام الغزالي	في سبيل السعادة واليقين
٩٠	القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد	وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي
٩٥	عبد الرحمن بن الجوزي	علو الهمة
٩٨	ابن خلكان	سيد التابعين سعيد بن المسيب

الصفحة	أصحاب النصوص	النصوص
١٠٢	الحافظ ابن تيمية	النبوة المحمدية وآياتها
١٠٧	ابن خلدون	الظلم مؤذن بخراب العمران
١١٠	الشيخ ولي الله الدهلوي	المدينة العجمية عند بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم)
١١٣	السيد عبد الرحمن الكواكبي	أهل الطقة العليا من الأمة
١١٦	الشيخ محمد عبده	رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)
١٢٥	السيد مصطفى لطفى المنفلوطي	السكوخ والقصر
١٢٧	الأمير شكيب أرسلان	سيدي أحمد الشريف نسوسي
١٣٦	الدكتور أحمد أمين	الدين الصناعي
١٤٠	الدكتور طه حسين	سالم مولى أبي حذيفة
١٤٩	الأستاذ على الطنطاوي	الفردوس الإسلامي في قارة آسيا

المُترجمون في الكتاب

الصفحة

الصفحة

٩٥	عبد الرحمن بن الجوزي
٩٦	بشر بن الحارث الحافي
٩٦	معروف الكرخي
٩٨	ابن خلكان
١٠٠	سليمان بن يسار
١٠٠	عروة بن الزبير
١٠٠	سالم بن عبد الله بن عمر
١٠٢	الحافظ ابن تيمية
١٠٧	ابن خلدون
١١٠	الشيخ ولي الله الدهلوي
١١٣	السيد عبد الرحمن الكواكبي
١١٦	الشيخ محمد عبده
١٢٥	مصطفى لطفي المنفلوطي
١٢٧	الأمير شكيب أرسلان
١٣٦	الدكتور أحمد أمين
١٤٠	الدكتور طه حسين
١٤٩	الأستاذ علي الطنطاوي
١٥٠	محمد بن القاسم الثقفي
١٥٢	الشيخ معين الدين الأجميري
١٥٣	الشيخ قطب الدين بختيار الكعكي
١٥٣	الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي
١٥٣	الشيخ نظام الدين الدهلوي
١٥٤	الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي

٣٤	السيدة عائشة
٤١	كعب بن مالك
٥٢	الحسن البصري
٥٤	ابن المقفع
٥٨	ابن السماك
٥٨	داؤد الطائي
٦١	السيدة زبيدة
٦١	المأمون
٦٣	أبو عثمان الجاحظ
٦٦	ابن عبد ربه
٧٠	معاوية بن أبي سفيان
٧٠	المسعودي
٧٦	أبو الفرج الأصبهاني
٧٦	اشعب بن الزبير
٧٩	أبو بكر الخوارزمي
٨١	أبو حيان التوحيدي
٨٦	الإمام الغزالي
٩٠	صلاح الدين الأيوبي
٩٠	القاضي بهاء الدين بن شداد
٩٠	القاضي الفاضل
٩٠	الملك الأفضل
٩٢	الملك المعظم توران شاه
٩٢	أبو المعالي ابن الزكي

عربی زبان و ادب کی تحصیل کیلئے نذرۃ العلماء لکھنؤ کا مکمل و مفید ترین نصاب

۱۔	قصص النبیین	اول (عربی)	مولانا سید ابوالحسن ندوی
۲۔	" "	ثانی (")	" " "
۳۔	" "	ثالث (")	" " "
۴۔	" "	رابع (")	" " "
۵۔	" "	خامس (")	" " "
۶۔	القرآۃ الراشدہ	اول (عربی)	مولانا سید ابوالحسن ندوی
۷۔	" "	ثانی (")	" " "
۸۔	" "	ثالث (")	" " "
۹۔	مختارات من ادب العرب	اول (")	" " "
۱۰۔	" "	ثانی (")	" " "
۱۱۔	منشورات من ادب العرب	(")	مولانا محمد رابع ندوی
۱۲۔	تمرین النحو		مولانا محمد مصطفیٰ ندوی
۱۳۔	تمرین الصرف		مولانا معین اللہ ندوی
۱۴۔	معالم الانشاء	اول	مولانا عبد الماجد ندوی
۱۵۔	" "	دوم	" " "
۱۶۔	" "	سوم	مولانا محمد رابع ندوی
۱۷۔	علم التصریف		مولانا سعید الرحمن اعظمی ندوی
۱۸۔	تفہیم المنطق		مولانا ڈاکٹر عبد اللہ عباس ندوی
۱۹۔	عربی کے دس سبق		مولانا عبد السلام قدوائی ندوی

ناشر، فضیل دہلی ندوی

مجلس نشریات اسلام

۱۔ کے۔ ۳۔ ناظم آباد مینشن، ناظم آباد کراچی، فون ۱۸۱۶/۶۶